حزب البعث العربي الإشتراكي

القيادة القومية

أمة عربية واحدة

ذات رسالة خالدة

وحدة حرية إشتراكية

وقائع المؤتمر الفكري حول الصهيونية

بغداد من 08 الى 12 تشرين الثاني 1976

د.إلياس فرح

د.أسعد عبد الرحمن

روجي غارودي

إليزابيت ماتيو

فنسان مونتأي

د. السيد ياسين

منشورات الطليعة

المؤتمر الفكري حول الصهيونية

بدعوة من جامعة بغداد . عقد في العاصمة العراقية من ٨ الى ١٢ تشرين الثاني الماضي « المؤتمر الفكري حول الصهيونية » الذي شارك فيه عدد كبير من المفكرين العرب والاجانب بابحاث ودراسات ومناقشات بلغت مستوى رفيعا من الجدية والمسؤولية .

من كلمة رئيس الجمهورية

وقد افتتح السيد رئيس الجمهورية العراقية، المؤتمر بكلمة تحدث فيها عن اهمية هذه الندوة العالمية التي تعقد بمناسبة انقضاء عام على قرار الامم المتحدة بادانة الصهيونية كحركة عنصرية .

وقد جاء في كلمته :

« ان تاريخ العرب مليء بالدروس والعبر . فقد شهد الوطن العربي موجات من الغزوات ، كانت جميعها قائمة على العنصرية ، الدينية او القومية ، او كلاهما ، فضلا عن الموجة الاستعمارية التقليدية . الا ان الفشل كان مصيرها جميعا ، لسبب واحد . وهو ان الامة العربية كانت تشعر ، وهي تناضل ضد تلك الغزوات ، بمسئولية تاريخية انسانية هي جزء من رسالتها الحضارية . فلم تقابل العنصرية بعنصرية مماثلة ولم تحارب الشربادواته، بل انتصرت على العنصرية بالصمود الذي حافظت به على مصيرها ، وبالقضاء على نقاط الضعف الداخلية التي كان يستغلها العدو ، وبتجديد ذاتها من خلال القيم الثورية التقدمية التي التزمتها خلال كفاحها ضد عنصرية الغزاة .

« ونحن في هذا القطر العربي المناضل . ندرك بوعي اهمية الفكر في الثورات ، واهمية الالتزام بالقيم الانسانية كجزء لا يتجزأ من عمل الفكر المناضل . لذلك عمدنا منذ مطلع ثورتنا الى اجتثاث كل رواسب المرحلة الاستعمارية التي كانت تسمح بانتعاش العنصريات . فحققنا على ارض هذا الوطن السلام والوئام بين ابناء الشعب من العرب والاكراد والاقليات كافة . لقد طبقنا سياستنا هذه من خلال افق حضاري ونظرة الى المستقبل تحقق ارضية مشتركة للنضال المشترك بين هذه التكوينات البشرية ومن اجل انقاذ العراق من ايدي العابثين العنصريين .

« كما اتخذ مجلس قيادة الثورة قرارا بدعوة اليهود العراقيين الذين هجروا العراق تحت ضغط الحركة الصهيونية ومكائدها والظروف الشاذة التي وضعت فيها المنطقة منذ اصبح للصهيونية موطيء قدم في فلسطين .

« وكان هذا القرار تعبيرا عن الدوافع الانسانية والحضارية التي تشدنا الى تاريخ امتنا ، والتي لا تكتفي بالتميز بين الصهيونية واليهودية ، بل تعتبر اليهود العرب وجميع اليهود غير الملتزمين بالايديولوجية الصهيونية ، هم ضحية الصهيونية » .

واضاف الرئيس العراقي يقول :

« وما نشاهده اليوم في لبنان من انعاش مصطنع للعنصريات الطائفيه والشعوبية الحاقدة على العروبة ، ومن محاولات دائبة لزرع العنصرية والفتنة والانقسام وتعزيز التجزئة في الوطن العربي، ليس الاوسيلة لتسوية اوضاع المنطقة بشكل يبرر الوجود العنصري في فلسطين على اساس تعميم العنصرية وجعلها قاعدة الحياة وصيغة العلاقة بين البشر ، اي بشكل يناقض طبيعة الحياة والتطور نحو الوحدة والحرية والاشتراكية في هذه المنطقة . ويهدم المعنى الحضاري للنهضة العربية المعاصرة » .

تعليق د . سهيل ادريس

وفي المناقشات ، علق الدكتور سهيل ادريس على المقطع الذي تحدث فيه السيد رئيس الجمهورية العراقية عن احداث لبنان . فقال ان حكمه تحليل صائب لاهم جذور المعركة في لبنان . واضاف يقول :

« ان النضال المشترك والقتال الذي اجبرت القوى الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية على خوضه ، انما كان يقصد في تخطيط من ارادوه الى اقامة عنصرية جديدة تكرس واقع التمييز والامتيازات القائمة في لبنان منذ استقلاله . وهذه العنصرية كانت ولا تزال تتلبس في اذهان القوى الانعزالية في لبنان نوعا من التعالي

والتشامخ يرفض أن يكون لبنان ذا حضارة عربية ويرفض ان يكون الفريق الاخر في لبنان مساويا في الحقـــوق لحملة الايديولوجيـــة الانعزاليـــة . من اجل هذا ، قـــام منذ عشرات السنين ذلك التمييز الذي قسم اللبنانييـــن الى فرقاء ، فريق منهم مواطنون من الدرجـــة الاولـــى ، وفريق اخر مواطنون من الدرجة الثانيـــة . وربمـــا كان منه فريق من الدرجة الثالثة ..

وحين نشاهد اليوم فريقا من اللبنانيين ، هـــو بالتحديد فريق مواطني الدرجة الاولى علـــى اختـــلاف طوائفهم ، يتعاونون اوثق التعاون في جنوب لبنان مـــع وحدات الاسرائيلية ، فيتدربون على ايديهم ويتسلحـــون بسلاحهم ويمارســـون كـــل اساليبهم في القتل والتعذيب والوحشية ، حيـــن نشاهدهم اليوم يفعلون ذلك ، نفهم جيدا ان تتعاون العنصرية الصهيونيـــة التي جعلت من الاسرائيلي مواطنا من الدرجة الاولى ، ومن العربي فـــي فلسطين المحتلة مواطنا من الدرجة الثانية ـ نفهم جيـــدا ان تتعاون هذهالعنصرية الصهيونية مع العنصريةالانعزالية في لبنـــان !

ولذلك ، فان المعركة المشتركة التي تخوضها الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية انما هي بالدرجـــة الاولى معركة ضد العنصرية الصهيونية المتحالفـــة مـــع العنصريـــة الانعزاليـــة ..

اجل ايها الاصدقاء ، اعضاء المؤتمر الفكري حـــول الصهيونية .. ان وطننا الصغير لبنان يعاني هو ايضـــا من العنصرية الصهيونيه .. بل ان اسرائيل العنصرية هي اصبع الفتنه التي دمرته ومزقته . ومن الخداع والتضليل ان يستشهد حكام اسرائيل بما يجري في لبنان ليرفضوا او يـــردوا فكرة التعايش بيـــن اليهود والعرب في دولـــة ديموقراطيـــة علمـــانية .. فالحقيقة انهم كانوا يطمحون دائمـــا ، ومنذ زمن بعيد ، الى اشعال الفتنة بين المواطنين اللبنانيين . والى اذكاء روح العنصرية والتمييز لدى فريق منهم ليبرروا رفضهم للتعايش .

وأود هنا ان اضيف ملاحظة على ما ورد في كـــلام السناتور الاميركي جيمس ابو رزق . فبالرغم من ايماننا بدقه على حق في ضعف الدعاية العربية ، فاننا لا نقره على عجـــزه في الرد على من يقول ان العربي يقتل العربي في لبنان . فالواقع ان الفريق الذي يقاتـــل الفلسطينيين واللبنانيين العرب ليس عربيا ، وهو يرفض ان يـــكون عربيـــا . انه في حقيقـــة الامر يتعامل مع اسرائيل ،ومن الممكـــن بالتالي ان يكون عميلا اسرائيليا .. واخرالاحداث في جنوب لبنان ربمـــا كانت شاهدا دامغـــا على ذلك !

★★★

د. الياس فرح

كيف نواجه الصهيونية كحركة عنصرية ؟

يصعب دون شك في عالم كعالمنا الراهن ، الاعتماد على المقاييس والمعايير المتعلقة بمفاهيم الزمان والمكان والتطور والمراحل التاريخية ، التي كانت سائدة قبل ان تخضع بنيه المجتمعات البشرية لعمليات التبدل الاساسية والتغيير المتسارع والشامل . واصبح لا بد في مثل هذا العالم ، من رؤية جديدة وفهم اعمق لطبيعة التطور التاريخي ومتابعة مسيرته . كما لا بد من بصيرة تاريخية ثاقبة من أجل اكتشاف المنعطفات والمراحل الحقيقية لهذا التطور ، التي تؤشر ملامح المستقبل القريب والبعيد .

فلم تعد النظرة البسيطة المختزلة بتفاؤلية تاريخية ساذجة ، تكفي لاستيعاب تطور تاريخي لم يعد ايقاعه بطيئا ، بل ان كمية المعارف في سياق هذا التطور باتت تشكل تحديا امام جميع مناهج الفكر القديمه وأصبحت تتطلب نباهة تاريخية من مستوى جديد ، وقدرة على تركيب المعطيات الجديدة في عالم اليوم ، ونظرة عميقه من الداخل الى المشكلات والقضايا المعقدة في هذا العالم ، وقدرة على التجرد والنظر الى المستقبل بعين الانسانية بكاملها .

بهذا كله ، وبهذا وحده ، يمكن أن نتعامل مع المستقبل تعاملا مستنيرا مستندا الى فهم للمرحلة التاريخية في سياقها العام والخاص ـ يجلو سماتها ويسمح بالتنبؤ بما يكمن في داخلها من مؤشرات واعدة أو منذرة . أن التفاؤلية التاريخية المعتمدة على الاستسلامية الحتمية تهبط في تبسيطيتها الى درجة العجز عن ادراك الطبيعة المعقدة للصراعات القائمة في عالم اليوم . كما ان التشاؤمية تعكس ، من طرف آخر ، الى جانب التجاهل للحصيلة الايجابيه للتطور البشري والجهل بطبيعة المرحلة الراهنة من هذا التطور ، هبوطا في التوتر النضالي وفي الاستعداد للكفاح ، ونوعا آخر من الاستسلامية الحتمية للامر الواقع ولمنطق القوة الفاشمة .

صحيح انه في عالم الثورات العلمية والتقنية والاعلامية وثورات الشعوب والجماهير الكادحه ، اصبحت الحقوق اهدافا للنضال اليومي ، الا انه صحيح ايضا ان حصيلة التطور الفكري والمادي للبشريه اليوم ، تستخدم بحذق ودهاء من القوى المعادية لهذا التطور . وان الاحتلال والغزو والطغيان والتعصب والكراهية ، وبكلمة واحدة (العنصرية) ، تقترن في عالم اليوم بظواهر وأسلحة جديدة ومتطورة أيضا . ان جدلية عملية التطور تتشابك وتتعقد وتتعدد تناقضاتها وسط محاولات التزييف والتخدير والتضليل والتآمر ، باشكالها المتشحة احيانا بايديولوجيات ذات بريق خادع ، والسافرة في تحديها لقيم التطور البشري احيانا اخرى .

ونحن العرب ، لا نستطيع أن ننظر الى العنصرية والى (الصهيونية العنصرية) كشكل خاص من اشكالها الا على ضوء هذه الحقيقة .

فالصهيونية كظاهرة عنصرية لا يمكن فهمها وتحليلها الا على ضوء سياق التطور التاريخي للعالم الراهن ، الذي يشهد بشتى اشكاله وانبعاث حضارات وتحولات حاسمه في اتجاه التقدم والتحرير والسلام. كما لا يمكن ادراك خطورتها الا على ضوء التناقض القائم في المستوى التاريخي والحضاري ، بين اليقظة العربيه والمشروع الصهيوني .

فما هي أبعاد هذا المشروع ؟ وما هي أبعاد المواجهه المصيريه معه كوجود وكحركه عنصرية ؟

الصهيونية واليهودية

قد يقال بأن الصهيونية « فكرة أوروبية واميركية » (١) . الا انها بالقدر نفسه ايضا « يهودية » . فاذا كان الوجود الصهيوني في فلسطين يدين للمصالح الاستعمارية والامبريالية الاوروبيه والاميركية ، التي ساهمت في تحقيقه ودعمه .. فان ذلك لا يمكن ان يحجب حقيقة كونه تعبيرا عن ايديولوجية ، وعن تطلعات ، بعيدة الغور في الحياة اليهودية نفسها . وحتى لا نكون نظرنا الى الصهيونية نظرة جزئية ، ينبغي بالقدر الذي تؤكد فيه صلة الايديولوجيات والممارسات الصهيونية بالمخططات الاستعمارية القديمة والامبريالية الحديثة ، أن لا نكتفي بأن ننظر الى الصهيونية والوجود الصهيوني بانها مجرد أداة وامتداد لتلك المصالح والمخططات الامبرياليه الطامعة بثروات الوطن العربي وموقعه الجغرافي الستراتيجي والخائفه على مصير مصالحها من يقظة الامة العربيه ومن نضال الشعب العربي من اجل استعادة وحدته وحريته وتقدمه .

وبالمقابل فان تأكيد الارتباط والصلة القائمه بين الصهيونيه وبين التاريخ والقيم والحياه اليهودية ، ينبغي ألا تكون على حساب التمييز بين حقيقتين رئيسيتين :

١ ـ ان الصهيونية بحكم طرحها مشكلة الثنائية أمام اليهودية قد جعلت المعادلة بين الصهيونية واليهودية تصطدم بروح العالم الراهن وتركيبه وعلاقاته . وبالتالي جعلت الانفصال واقعا بين طرفي المعادلة . لان الصهيوني وحده هو الذي يقبل وضع هويته (الفرنسية او الاميركية أو الالمانية) في خدمة (هويته الصهيونية) بشكل مطلق.

٢ ـ ان الصهيونية بالرغم من انها صرخة نابعة من آلام اليهود عبر التاريخ ومحاولة لانقاذ التاريخ اليهودي من مسلسل الاضطهاد ، الا انها بحكم تجاهلها لكل سلاسل الآلام الاخرى في حياة الشعوب وخاصة المعاصرة ، وبحكم ارتباط المشروع الصهيوني ارتباطا مباشرا باستراتيجيات الدول المستعمرة ، واصطدامه مباشرة بمصالح النضال

---

(١) أرجع الى كلمة الجامعي النروجي (نيلس وتشون) في ندوة ليبيا عن « الصهيونية والعنصرية » ٢٤ ـ ٢٨ تموز ١٩٧٦ .

العربي وبنهضة الشعب العربي للتحرر من التخلف ومن الاستعمار ومن التجزئة ... كل ذلك قد جعل من الصهيونية عمليـــة أساسية للمشكلة اليهودية أكثر منها عملية حل لها ، وعملية ربط لهذه المشكلة بالمخططات والمصالح الامبريالية ، وعملية قطع طريق على تيار التحرر العربـي .

ومن هنا كان لا بد للطبيعة العنصرية الماصقة في الايديولوجية الصهيونية أن تعبر عن نفسها بممارسات عنصرية لم يكن ثمة مقدمات تاريخية لها في علاقة الامة العربية باليهودية . فقد خلقت الصهيونية أزمة مصطنعة بين اليهود والعرب ، واستعانت بكل رواسب العنصرية في الحياة الاوروبية ضد العرب ، وكان نهجها الثابت ان تتمكن من خلق عصبيات عنصرية متأججة تمتد داخل الوطن العربي ، كما نشاهد في أحداث لبنان .

وبكلمة واحدة كانت الصهيونية على صعيد العلاقة بين العرب واليهود خطيئة تاريخية انقلبت الى مسلسل من الجرائم والمآسي ، لا بد من اجل مواجهة شروره من استيعابه بأكبر قدر ممكن من الحرية والصدق والاخلاص لمصالح الشعوب والاحترام للقيم الانسانية . ومن هذه الزاوية ندرك لماذا اسندى قرار الامم المتحدة حول « عنصريـــة الصهيونية » بصورة آلية ، الصلة بقرار « تقسيم فلسطين » ، أي بأساس منشأ الكيان الصهيوني .

قرار الامـــم المتحـــدة

في حديثه مع صحيفة «اوروبا» اللندنية بتاريخ ١٤ ـ ١١ ـ ١٩٧٥ يقول (أيفال آلون) تعليقا على قرار الامم المتحدة باعتبار (الصهيونية شكلا من العنصرية والتمييز العنصري) :

« وان المنطرفين العرب أرادوا في الامم المتحـــدة تمرير قرار يزودهم بقاعدة اساسية ودعائية لانهاء وجود اسرائيل » . ثم ردف قائلا : « انه من السخرية ان الصهيونية التي كانت اساسا تعبيرا عن الثورة ضد اللاسامية وضد التمييز العنصري ، وتمثل شعبا كان اكبر ضحية للتمييز العنصري في العالم ، تدان بنفس المستوى بالنسبـــة للتمييز العنصري والاستعمار » . وهكذا يبدو القرار بالمنطق الشكلي متناقضا ، لان النتيجة المترتبة على القياس الارسطي (غير المباشر) الذي يستخدمه آلون تقول :

الصهيونية حركة مضادة للاسامية ، اللاسامية حركة عنصرية ، اذن الصهيونية حركة مضادة للعنصرية .

كما ان القياس المباشر يقول : الصهيونية تمثل شعبا كان ضحيـة للتمييز العنصري ، اذن الصهيونية مضادة للتمييز العنصري .

ومن الطبيعي ان يكون هذا التناقض الظاهري الذي يبدو او ما يزال يبدو تناقضا حقيقيا بالنسبة للاوساط المشبعـــة بالتأثير الصهيوني والبعيدة عن ملامسة الحقائق الموضوعية التي تجري على مسرح فلسطين والوطن العربي بوجه عام ... هو الذي جعل القرار الذي صدر عـــن الامم المتحدة يبدو لهذه الاوساط ظالما متعسفا ، فيه من الحقد اكثر مما فيه من التبصر . وانه لعبة لئيمة تكتلت من أجل انجاحها قـــوى فاقدة للشعور بالمسؤولية الدولية والتاريخية (ويقصدون بذلك الدول الاسيوية والافريقية بوجه خاص) . ونحن في هذه الندوة الفكريـــة العالمية ، ندفعنا المسؤولية التاريخية الى الحرص على أن تأتي أفكارنا نابعة من حاجات ودوافع ، متجاوزة لما هو عـــابر وسطحي وانفعالي ومصطنع ، وملتحمة بمصلحة الشعوب والامم والطبقات الكادحة والمظلومة لا بمصالح طبقية وفئوية وذاتية ضيقة ، ومستهدفـــة خير الانسانية ومستقبل الجنس البشري والقيم التي تعطي لوجوده المعنى الحضاري الايجابي والتقدمي المنسجم مع التطور الموضوعي للمجتمعات البشريـة والتاريخ الانساني .

وعلى هذا الاساس ، فاننا لا بد أن نؤكد على عدة منطلقات منهجية نعصم منطلقنا ونظرتنا الى المشكلة عن الوقوع في أخطاء أساسية نجم عنها نتائج تحملنا مسؤوليات تاريخيه :

أ) ضرورة النظر الى المشكلة من داخلهـــا ، اي عبر الآثار والممارسات التي تشكل بمجموعها جذر المسألة والتي تحدد قواعدهـــا وساحة المعركة فيها على أرض فلسطين ، ويتسع اطارها ليشمل الوطن العربي ، وتمتد آثارها على الانسانية بكاملها . واهمية هذا المنطق تبدو جلية واضحة بالنسبة لاولئك الذين ينظرون الى الوجود الصهيوني كامتداد للغرب الاوروبي ثم الاميركي ، امتداد لحضـــارته وتسميته بالذنب ، ويكتفون بالنظر الى المشكلة الفلسطينية من خلال ذواتهـــم لا من خلال معطياتها ، ومن خلال ما تغذيه الدعاية الصهيونية فـــي نفوسهم لا من خلال المأساة الحقيقية التي دفع العرب وما يزالون ثمن الذي ظلما يدفعه أو يمكن ان يدفعه شعب آخر في هذا العصر . اذا لم ننهض في وجه التحدي الصهيوني ارادة انسانيـــة شاملة ووعي بصري مؤثر لهذا الشعب العربي الفلسطيني الذي يصلب كله وفي كل يوم ، على أرض فلسطين وفي الاردن وفي لبنان وفي سوريا وعلى امتداد الساحة العربية أحيانا وعلى مستوى العالم بأسره ، بايـــدي المخططين والمنفذين للمشروع الصهيوني ، يهودا كانوا أم عربا أو من أمم أخرى ، فقرار الامم المتحدة لم يكن الا تعبيرا عن تطور في الوعي العالمي لحقيقة الوجود الصهيوني . وقد تمثل هذا الوعي في أقطاع الاكثر تعرضا للظلم في العالم ، أي في قارتي آسيا وافريقيا ، وبعض أقطار اميركا اللاتينية ، فضلا عن القوى التقدمية والاشتراكيـــة في العالم ، لان هذه القوى استطاعت أن تنظر الى المشكلة من داخلهـــا بحكم وقوع بعضها تحت الظلم الاستعماري والتمييز العنصري طويلا ، وبحكم اكتشاف البعض الآخر للتحالف الثابت بين الصهيونية والامبريالية والرجعية في العالم .

ب) الحاجة الى (النظرة الكلية الشاملة) الى المشكلة ، اي النظرة التي تتجنب النزعة الجزئية فلا تكتفي بالنظر الى المسألة من وجه واحد أو بالتركيز على جانب واحد من جوانبها على حســـاب اهمال الجوانب الاخرى .

وأهمية هذا المنطلق تبدو بوجه خاص كعـــامل في تحقيق شرط أساسي من شروط الموضوعية ، لان النظرة الكلية الشاملة تساعد على الخروج من اطار الذاتية وعلى استيعاب المشكلة في اطارها الجامع ، وفي مضمونها المتشابك المعقد ، فلا تقف عنـــد النظرة البسيطة القاصرة ، ولا تغرق في النزعة التجريدية للواقع ، ولا تلتزم بوجه مطلق بمقولات لا تعبر عن الواقع الحي وعن الابعاد الحقيقية والعوامل الجوهرية للمسألة الفلسطينية ،والاهداف والمصالح التي ساهمت في خلقها وفي ايصالها الى ما هي عليه كأزمة دائمة للسلام العالمي ، فضلا عن كونها مأساة شعب ، وأزمة قيم ، ومعضلة تاريخية .

ان آلام اليهود في المانيا النازية أثنـــاء الحرب ، كآلام عرب فلسطين بعد الحرب ، وكآلام الافريقيين والزنوج وجميع ضحـــايا التمييز العنصري في العالم ، تشكل هموما مشتركة لنا جميعا ، تدفعنا الى فضح الدوافع العنصرية الكامنة وراءها ، بقدر ما تدفعنا هـــذه النظرة الشاملة الى البحث عن المصدر الذي تنبع منه ، والى التصدي لجملة العوامل المترابطة التي زرعت الشر في هذه المنطقة او تلك من العالم ، ثم توضع حد لخطرها وتهديدها للسلام في العالم باجتثاث أصل الشر . وهي عملية دقيقـــة ومعقدة بحكم تشابك العوامـــل وتداخلها ، فلا بد من الاحاطة بهذه الشبكة كلها ، فالعنصريات في عالمنا تكاد تنبع من مصدر واحد أو تصب في مجرى واحد . والعنصرية الصهيونية ليست سوى جزء من كل هو (العنصرية في العـــالم) ، الذي تجسده التحالف الامبريالي الصهيوني .

ج) ان النظرة الشاملة الكلية تحتم النهج الفكري المكمـــل لها

المتمثل بالنظرة الجدية التي تستوعب الواقع وتنافضاته وأطراف المعادلة في وجهيها العام والخاص . فنحن لا نستطيع أن نكتفي بخصوصيه المسالة العنصرية في مكان ما بعيدا عن اطارها المشترك العام . كما اننا لا نستطيع من طرف آخر وبحجة ادانة العنصرية في كل زمان ومكان أن نجعل من هذه الادانة سببا أو وسيلة للتخفيف من شأن المكان الذي تتجلى فيه العنصرية بأبشع أشكالها وأبشع مظاهرها ، أو عاملا من عوامل التغاضي أو التهوين من خطر الممارسات العنصرية في هذا المكان .

ان ظلما قد وقع على اليهود ، الا أن الظالم أدين وحكم وعوقب وأصبح لعنة من لعنات التاريخ . أما الظلم الواقع على العرب فما يزال يصرخ في وجوهنا كل يوم ، لان الظالم يمنع بتمادي ظلمه ، ويمعن في تخريب الحياة العربية وقطع الطريق على استعادة شروط بنيان هذه الحياة من جديد على أسس حضارية تعيد الصلة الحية بماضي العرب الحضاري ويروح هذا العصر ويساهم في صنع مستقبل انساني للبشرية .

فلا بد اذن لفهم جوهر المسأله الفلسطينيه من أن نقرن النظرة الجدلية بالنظرة الشامله وان نعرف كيف نحيط بأبعاد المسالة ، حتى نعرف كيف نبني تصورنا لمواجهة أخطار المستقبل ونكفل عدم تكرار هذه المآسي في حياة اليهود والعرب على السواء ونتصدى بحزم لكل الافكار والممارسات العنصرية أين وجدت ومتى وجدت .

د) وأخيرا لا بد من التأكيد على ضرورة (النظرة الجذريه الى المسأله) . فالمشكلة سوف تظل قائمه اذا لم نعالج من الاساس ، واذا لم نتجاوز المظهر السطحي المصطنع المفروض بالقوة الذي يعبر عن وجود قلق منفجر . فالمشكلة تكمن في الطبيعة العنصرية للفكر الصهيوني وفي الممارسات التي أكدت الجوهر السلبي للصهيونية ، الجوهر اللاانساني لها . فهي التي لم تولد ولادة طبيعية بريئة من آلام اليهود ولا من الدوافع الانسانية لهذه الآلام ، ما كان لها بالطبع أن تعترف بآلام العرب أو أن تفهم قضيتهم في هذا العصر بحكم ارتباط الصهيونية بمصالح جعلت المشروع الصهيوني أداة عدوان وتهديد دائم لمستقبل النهضة العربية .

لذلك فانه ما لم نستوعب هذه الحقيقه وهي أن الفكر الصهيوني قد ولد من رد فعل على حاله الاضطهاد، اي على اللاسامية، ومن استغلال لهذه الحالة من أجل دفع الحياة اليهودية في طريق مسدود تاريخيا ، وانه لم يكن معالجة عميقة وعلمية لمشكلات اليهود وان عنصريه جزء من تكوينه ، وان المعالجات السطحية ذات الطابع السياسي الموقت المعتمد على القوى والمخططات السياسية النسوية أو التصفوية للقضية الفلسطينية لا يمكن أن يتوفر لها النجاح الحقيقي الذي يوطد السلام ويحرز الالفة بين العرب واليهود ـ نعم بدون ادراك هذه الحقيقة لا يمكن أن نصعد الى أصول المشكلة ولا يمكن أن تكون مواجهتنا للتحدي الصهيوني العنصري ، مواجهة أساسية ، سيما وان المهمة الكبرى التي تقع على عاتق هذا المؤتمر هو أن يجيب على السؤال الكبير الصعب :

كيف نواجه الصهيونية كحركة عنصرية ؟

ان المنطلقات المنهجية التي سبقت الاشارة اليها تساعدنا بادىء ذي بدء على تقرير جملة من الاسس التي لا بد منها لتحديد جوابنا على السؤال المطروح على هذا المؤتمر :

١ ـ ان ظواهر التمييز العنصري مجافية لطبيعة عصرنا ، عصر الاشتراكية الذي بدأت ملامحه مع النصف الاول للقرن العشرين مع الثورة البلشفية التي فتحت صفحة جديدة في تاريخ الانسانية . وان من الفهم الخاطىء لحركة التاريخ أن تقدم الصهيونية في الاساس ، على اعتبار اللاسامية ، هي احدى ظواهر التمييز العنصري ، نزعة لا يمكن أن تزول ولا سبيل الى التخلص منها ولا مجال لمقاومتها والوقوف في وجهها ، وانها (متأصلة) الى الدرجة التي تكاد تبدو فيها كما لو انها « مشروعة » لتبرر « شرعية » ادهى منها وامر وهي الاحتلال وغزو فلسطين وتشكيل دولة يهودية ، أي شرعيه اغتصاب أرض وشريد شعب ، تحت ذرائع تاريخية هي ضد منطق التاريخ .

٢ ـ ان تجاوز هذه النقطة الاساسية ، أو محاولة تبريرها وتمريرها تحت شتى المبررات والتسويات ، خروج عن منطق الحكمة والقيم الانسانية والواقع الحي والتاريخ ، كما أنه منطلق خاطىء وغير واقعي على المدى البعيد وغير تقدمي ، يفضي الى سلسلة لا حدود لها من الاخطاء .

ان كون الصهيونيه ـ في فكرها وتنظيمها وأهدافها ـ جاءت كرد فعل على حالة تاريخية معرضة للزوال ، وهي «العنصرية اللاسامية» ، فان « رد الفعل » كان لا بد أن يجعل الصهيونية ، بمنظارها التشاؤمي الرجعي الى مستقبل الانسانية هذا تقابل « اللاسامية العنصرية بسامية عنصرية » . وقد كان العرب هم الضحية أمام عنصرية الصهيونية كما كان اليهود ضحية عنصرية النازية واللاسامية الكامنة وراءها .

ان « رد الفعل » لا يستطيع أن يحقق أكثر مما تحققه الدوافع الغريزية العضوية البدائية المشبعة بالانفعال والقصيرة النظر . والحقائق الايجابية ، انما تأتي نتيجة تجاوز « رد الفعل » و «الانفعال» الى المعالجة الاساسية الجذرية المستندة الى فهم عميق وإخلاص للحقيقة والتزام بما يتطلبه النضال من أجلها .

لقد وقعت الصهيونية نتيجة الاكتفاء برد الفعل على اللاسامية في أخطاء العنصرية . وهي لا تستطيع أن تتجاوز أخطاءها بذاتها . لان وجودها العنصري في فلسطين وممارستها بحق العرب ، قد حولت أخطاءها الى خطايا ، بل أصبح تجاوز رد الفعل على اللاساميه رهنا بنضال مشترك بين العرب واليهود ضد الامبريالية والممارسات الصهيونية التي ألحقت بالعرب ونهضتهم المعاصرة أفدح الضرر ، وزجت باليهود في مأزق تاريخي لا سبيل للخلاص منه الا بالخروج من اطار المشروع الصهيوني ، والعمل ضمن منطق التاريخ ، منطق التفاعل المشترك والنضال المشترك ضد العنصرية بجميع مظاهرها وأشكالها وفي جميع خنادقها وزواياها .

٣ ـ ان مستقبل الصهيونية بات مرتبطا بشكل أساسي وحاسم بمستقبل الامبريالية الاميركية . لان تطور الحركة الصهيونية منذ نهاية القرن الماضي حتى قيام « دولة اسرائيل » عام ١٩٤٨ كان يعتمد على تعاون ودعم السلطات الاستعمارية الامبريالية المسيطرة في العالم . ثم ان تطور الكيان الصهيوني في فلسطين أخذ يعتمد بعد ذلك وبشكل متصاعد على الامبريالية الاميركية بعد الحرب العالمية الثانية . كما ان استقرار هذا الكيان وأمنه وتوسعه ومستقبله العدواني بحكم قيامه فكرا وممارسة على نزعة عنصرية متأصلة ، أصبح يعتمد اكثر فاكثر على نجاح هذا الكيان في بعث عنصريات غافية واصطناع عنصريات جديدة لتفتيت الوطن العربي واغراقه في الحروب الاهلية ، ودعم الطبقات الرجعية وانظمة الحكم المدعومة من الاجنبي الفاقدة للروح الوطنية والمعادية لجماهيرنا الكادحة ، ومحاولة ارجاع الاوضاع في الوطن العربي الى الوراء وخنق روح النهضة العربية ، وتحويل العرب عن طريق التطور والتقدم والنزوع الحضاري ، الى الاستسلام لضرورات وحاجات الستراتيجية الامبريالية الصهيونية الرجعية في المنطقة ، وقتل روح النضال وترك الثروات العربية والجماهير العربية الكادحة، أسرى النهب والتحكم والاستغلال الاستعماري الصهيوني الرجعي وقطع الطريق على الدخول في مرحلة تاريخية جديدة نضجت كل عوامل الدخول فيها .

لذلك فان معركة العرب مع التحدي الصهيوني العنصري هي اوسع من أن تحصر بين أنظمة عربية وبين الكيان الصهيوني ، لان بعضا من هذه الانظمة ينفذ مخططات امبريالية وصهيونية بأبعد مما تحلم به

القوى الامبريالية والصهيونيه ، كما ان المعركه هي أعمق من أن تكون بين الواقع العربي الراهن والواقع الصهيوني الراهن ، وأكبر من خلاف على أشبار من الارض أو على سيادة جزئية على شبر من هذه الارض . والمعالجة الجذريه لا بد أن تتجاوز حدود السويت مع القوى العابره في مجرى التطور العربي وفي الحياة اليهودية ، ثم أن المعركه ليست معركه بين (عرب ويهود) . وكل هذه الصور زائفه تماما كزيف المحاولات التي تختصر أحداث لبنان اليوم ونصفها بين (مسلمين ومسيحيين) .

انها معركه بين حركه التاريخ الصاعدة في هذه المرحله من حياة العرب ومن حياة الانسانية ، وبين المشروع الصهيوني الذي ينبني على العنصرية وحمل معه بها بذور فنائه المحتوم .

وهذه المعركه تسع لتشمل جميع من لهم مصلحه في انتصار ارادة الحق ، ارادة التاريخ وانحياز المعاصرة وقيم الحضاريه والانسانيه . وانها تجمع النضال المشترك العربي اليهودي أولا ضد المشروع الصهيوني ، وتجمع القوى المحبه للسلام والعدل في العالم ، قوى الاشتراكيه والتحرر والتقدم لمجابهه التحالف الامبريالي الصهيوني الرجعي الذي يهدد مستقبل التطور والتحريه والسلام في العالم .

ابعاد المواجهه للصهيونية كحركة عنصريه

١ ـ ان البحث في هوية الصهيونية ـ من حيث ايديولوجيتها وممارساتها ـ يتركز عادة حول بعدي الزمان (الماضي والحاضر) لوجود الصهيونيه كحركة عنصريه . أما البحث في كيفيه التصدي لهذه الحركه ومواجهه أخطارها ، فانه يتعلق بالمستقبل ، أي بالبعد الزماني الذي يتوقف عليه مصير هذه الظاهرة ومصير المجتمعات البشرية والقيم الانسانية التي تعرضت ، وسوف تبقى مهددة باستمرار بافدح الاخطار بسبب طابعها العنصري .

ولا يمكن الكلام عن المستقبل بروح علمية أو التخطيط له ، دون استقراء علمي لوقائع الماضي وأحداث الحاضر ، ودون اكتشاف الابعاد الكبرى والمحركات الاساسية للسلسله التاريخية ، والتفاعل الخلاق بين الاتجاهات المتجاوبة مع حركة التاريخ ، وبين الاتجاهات المعاكسه لها ، المقاومة لخطها التقدمي الصاعد .

وكلما كانت المعرفة حية غير مجردة ، وكانت مستوعبه أسبقيا عميقا وداخليا لاحداث الواقع ، ومعتمدة على فهم لقوانين الصراع أي متمتعة ببصيرة تاريخية ، كلما كانت مدخلا سليما لجعل أحداث الماضي والحاضر في خدمة مستقبل الانسانية . لذلك فان الفهم العلمي الجدلي التاريخي للظاهرة الصهيونية ، القائم على استيعاب جملة مكونات افكارها وممارساتها في فلسطين ، لا بد أن ينطلق في نظرته الى مستقبل هذه الظاهرة العنصرية ، من حاجات النضال العام ضد العنصرية في العالم بوجه عام ، ومن حاجات النضال الخاص ضد الافكار والممارسات العنصرية للصهيونية كوجود سلبي في فلسطين يهدد مستقبل الحياة اليهودية والنهضة العربية والسلام في العالم .

٢ ـ ان الجرح التاريخي في فلسطين ، أخذ شكل مؤامرة تاريخية تمس العرب واليهود وتمتد آثارها وأخطارها لتشمل دولا وأنظمة وقارات ، ولتهدد قيما وحقوقا وحياة شعوب وأمنها . وهذه المؤامرة التاريخية لا يمكن ان تواجه مواجهة صحيحة الا بعمل تاريخي يتجاوزها. واذا كانت المؤامرة من صنع التحالف الامبريالي الصهيوني الرجعي الذي ينظر الى مستقبل البشرية كله ، من خلال المصالح والعقد القديمة والقيم والمفاهيم التي تجاوزها التطور الانساني ، فان التصدي لهذا التحالف المولد للعنصريات والذي يولد منها ليغذيها وينغذى بها ، لا يكون فعالا وقادرا على فتح آفاق جديدة في حياة البشرية ، الا اذا استند الى مفاهيم وقيم وممارسات انسانية حضارية تجمع في خط واحد قوى الخير والتقدم في العالم ، قوى الشعوب المقهورة المتطلعه الى الحريه ، وارادات الافراد التاريخيين الذين يحملون في ضميرهم وفي تفكيرهم الشعور بالمسؤولية عن مصير العالم .

٣ ـ ان هذه الستراتيجيه الواسعة الشامله لمواجهه هذا التحالف الذي يغذي العنصرية الصهيونية ، لا بد ان تعتمد على العمل الفكري كعامل أساسي في الكشف المستمر عن حقيقتها من المداخل ومتابعة آثار ونتائج كيانها العنصري في بث العنصريات أو حتفها واصطناعها في المنطقة العربية وفي خلق بيار معاكس لخط الديمقراطيه والوحدة والتقدم في الوطن العربي .

ان الصهيونيه ذات طبيعة عنصرية من نوع خاص مركب يتجاوز في التعقيد وفي الخطر العنصريات الاخرى . وهي كحركه منظمه حديثه تعكس في آن واحد الجانب المتقدم تقنيا والمتفهقر حضاريا من الوجود الاوروبي المعاصر ، فانها تملك القدره على استغلال أحدث التطورات والوسائل لحجب حقيقتها العنصريه وانتستر بأثواب خادعة ، واسقاط عنصريتها على الغير . لذلك فان الاسلحه الفكرية هي من اهم عوامل المواجهة للتحدي الصهيوني العنصري ، وكلما انتظمت هذه المواجهة واستخدمت هذه الاسلحة بشكل فعال قائم على استراتيجية يرسمها المفكرون المناضلون في العالم ضد العنصرية ، كلما كانت اشد حسما في وضع حد لهذه العنصريه الصهيونية .

ان توعية العالم على حقيقة الممارسات والاهداف الصهيونيه وجذب القوى المحبة للحرية والسلام وتوحيد جهودها ، يشكل عاملا اساسيا في هذه المواجهة .

٤ ـ لقد استفادت الصهيونية كحركة عنصرية من الآثار النفسية التي خلفتها مجريات الحرب العالمية الثانية ، لتمرير مخططاتها في غفلة عن رقابة الضمير الاوروبي وعن الحاسة النقدية للعقل الاوروبي التي خدرتها العواطف ومشاعر الذنب والاثم . ولم تكتف بذلك ، بل راحت تكون انفعالات مزورة وتصور النضال الفلسطيني التحرري بمظهر يتناقض مع طبيعته ، وراحت تسخر أجهزتها ومؤسساتها ووسائلها لاستغلال أخطاء العرب الناجمة عن التخلف ، أي الاخطاء التي لا يمكن أن يعتبروا مسؤولين عنها من أجل اظهار عدوانها بمظهر الشرعية .

فتقصير العرب في حق أنفسهم وقضيتهم وفي قدرتهم على جلائها وتوضيحها ، كان يضاف الى الجدار العاطفي الاوروبي ، ليشكل عاملا مهما للاستغلال العنصري الصهيوني وتمرير جريمة تاريخية يتضاعف فيها الظلم كل يوم وينسع اطاره وتتعمق آثاره . لذلك فان جانبا من المواجهه للتحدي العنصري الصهيوني ، لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار ضرورة التركيز على مخاطبة العقل الاوروبي وتصحيح آثار مرحلة تراكمت فيها التأثيرات الصهيونية الدعائية المضللة وانفاق قطاعات واسعة لا مصلحة لها في التمييز أو التستر على العنصرية وعدم البصر في عواقب مثل هذه المواقف التي تفتح الباب واسعا امام التضليل العنصري . وأخطر مظاهر هذا التضليل تتجلى في وضع بعض المفكرين للمشروع الصهيوني واليقظة العربية في ميزان واحد وفي كفتين متعادلتين .

٥ ـ ان موقف التحيز العاطفي ، وكذلك الحياد المبني على اعتبارات لا مبدئية ينبغي ان يكونا هدفا من اهداف حملة التوضيح والنضال الفكري ، وأن يكون هذا النضال قاعدة انطلاق اساسية لمواجهة التحدي العنصري الصهيوني . ذلك ان اشكالية القضية الفلسطينية ، أي اصطدام المشروع الصهيوني باليقظة العربية ، ليست صدفة ، كما انها ليست مبررا لاتخاذ مواقف لا مسؤولة او لاتخاذ أهون المواقف وأقلها عرضة للمتاعب . ولا بد في مواجهة الصهيونية كحركة عنصرية من الانطلاق من الاعتماد على الاسس والمبادىء ومن توضيح طبيعة المرحلة التاريخية وطبيعة الصراع القائم بين الصهيونية وبين حركة التحرر العربي وفهمه على حقيقته فهما جوهريا .

فهناك فروق جوهرية لا بل وهناك تناقض بين اساس المشروع الصهيوني ودوافعه ووسائله وأهدافه ، وبين حركة النهضة العربية . فالحركة الصهيونية التي أفرزتها المرحلة الاستعمارية في أوروبا كآخر حلقة من حلقات المد الاستعماري ، والتي نشأت على غرار الحركات الفاشية لكن دون سند شعبي ، والتي حملت في رد فعلها على اللاسامية الاوروبية كثيرا من عنصريتها ، عنصرية (اليهودي الازرعي) الذي لم يتحرر من اطار (الماضي) ولا من منطق (رد الفعل) أي من الحلقة المفرغة التي تجاوزها التقدم البشري ، على صعيد الفكر والممارسة ـ ان هذه الحركة الصهيونية العنصرية لا يمكن ان توضع في كفة ميزان واحد مع حركة التحرر العربي التي انبثقت من رحم التطور التاريخي ، والتي كانت جزءا من موجة التحرر في القارات الثلاث ، والتي تعتمد في نموها وافكارها ووسائلها على الجماهير العربية الكادحة المناضلة ، وتستلهم روح الرسالة العربية الانسانية في الماضي وتشكل جزءا لا يتجزأ من الثورات الاشتراكية التقدمية في العالم المعاصر . فاكثر الاشياء قربا الى منطق الواقع والحقيقة والعصر ، وبعدا عن الاصطناع والافتعال والسلبية ، الذي تمثله حركة القومية العربية ، لا يمكن أن يكون في نظر انسان يعرف الحقائق ، أو في حساب ضمير منصف ، قربنا لانني الاشياء بعدا عن منطق العصر ، سواء من حيث الايديولوجية أو الممارسة ، وعن روح العصر وعن السياق التاريخي الذي تنشأ فيه الافكار التحررية والحركات التحررية وحركات الانبعاث الحضاري . فالحركة الصهيونية قامت على تخطيط تتحدى فيه كل معطيات العصور في القرن العشرين ، مستعينة بذلك بالقوى الرجعية التي مستها معطيات التطور وهددت مصالحها . وفي النهضة العربية المعاصرة الشيء الكثير الذي يرهب الاعداء ، لان هذه النهضة تصطدم بالاستعمار والامبريالية والرجعية ، فالوحدة العربية وتحرر العرب السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، وبناء الاشتراكية كطريق وحيد للقضاء على التخلف ولتجديد الحياة العربية ضمن منطق العصر ... ان اهداف النضال العربي المعاصر هذه هي عناوين لتحول حتمي في حياة المجتمع العربي ينعكس مباشرة على المجتمع الدولي ويهدد مصالح الامبريالية والرجعية . ولا يمكن ان يفهم المشروع الصهيوني العنصري الا من زاوية هذا السياق ، أي الا على ضوء كونه يخدم مباشرة النقيض لحركة التحرر العربي ، وكونه يشكل جزءا لا يتجزأ من هذا النقيض ، على صعيدي الفكر والممارسة. لذلك فان مواجهة العنصرية الصهيونية تتطلب استيعاب هذا الدور السلبي وهذا المأزق التاريخي الذي نشأ بسببه ، أي تتطلب نضالا فكريا وعمليا ضد العنصرية الصهيونية وضد حلفها مع الرجعية والامبريالية .

٦ ـ ان تعميق انسانية النضال القومي العربي الاشتراكي ، يشكل بحد ذاته عاملا مهما في كشف عنصرية الصهيونية ، وفي مواجهتها . ان نضال العرب من اجل التحرر من عنصرية الصهيونية هو في صالح كل القوى التي تؤمن بالسلام والتقدم في العالم .

ان السلام والاستسلام نقيضان ، كما السلم والحرب . كما ان السلام القائم على توازن القوى والرعب ليس سلاما حقيقيا . ومن هنا تبدو بشكل جلي سوءات وضلالات المنطق الذي يتجاهل الاخطار التي تنطوي عليها المخططات والمحاولات التي يعمد اليها التحالف الامبريالي الصهيوني الرجعي ، لفرض الحلول المعبرة عن مصالحه بالقوة حينا وبالخديعة والتضليل حينا آخر . ان السلام هو الهدف ، ولكنه السلام الحقيقي الذي يحل المشكلة ولا يعلقها أو يزيدها تعقيدا واستعدادا للانفجار بصورة أشد في مرحلة لاحقة . وهذا السلام لا يتحقق الا بالنضال ، بنضال القوى المعادية للعنصرية التي ينبع السلام من فكرها وممارساتها وضميرها .

ان كل تخطيط للمستقبل لا يبني ثقافة الاجيال على المعرفة الحقيقية المتجهة الى السلام انما يبني عنصرية جديدة مضافة .

فلكي نواجه التحدي الصهيوني العنصري لا بد ان نفهم آلام اليهود وآلام العرب وان نحمل تصورا عن المستقبل يضع حدا حقيقيا لهذه الآلام .

ان العنصرية الثقافية والسياسية التي تشكل المحتوى الجوهري للتحالف الصهيوني الامبريالي ولمخططهما في المنطقة العربية ، لا تجابه بشكل حقيقي الا بالانتصار الفكري والعلمي على الظواهر السلبية القائمة على العنصرية ، أي على رفض الاخر واحتقاره والتعالي عليه وكراهيته، وعلى التعصب والانغلاق ، أي بالانطلاق من موقف انساني تقدمي حضاري تحتمه طبيعة النهضة العربية المعاصرة كحركة تحرر وابعاث وتجدد حضاري .

ان هذه المواجهة ينبغي أن تكون من خلال منطق الثورة التاريخية ذات التصور العالمي الانساني لمستقبل البشرية ، وأن تفهم ضمن اطار بناء العالم الجديد الذي تصنعه الثورات التحررية للشعوب في عصرنا، عالم الحرية والسلام والتقدم . والامة العربية لا تحتاج الى أن تكون شيئا آخر غير ذاتها ، ولا أن تؤكد على فضائل لم تمارسها عبر التاريخ ، لتكون مواجهتها للعنصرية الصهيونية بعيدة عن أمراض العنصرية ومؤكدة الطابع الانساني الحضاري لحركة انبعاثها الحديثة. ان القيم التي عاشت وتعيش عليها الصهيونية كحركة عنصرية ، تغذي أجيالا من العنصريين الذين اتخذوا من عقد التعصب والكراهية والخوف أساسا لثقافة تقوم على محاسبة التاريخ البشري وادانة كل الامم وصب النقمة على العرب .

ان هذه القيم وهذه الثقافة وتلك التربية والايديولوجية وأنواع الممارسات الصهيونية تأخذ مكانها في التاريخ بالنسبة الى العرب ، كامتداد للغزوات الصليبية وغيرها من الغزوات العنصرية ضد الاسلام والعروبة في الماضي . الا انه بالقيم ذاتها التي واجهت بها الامة العربية تلك الغزوات وانتصرت ، هي مطالبة اليوم بأن تواجه العنصرية الصهيونية وتنتصر عليها : قيم الثورة الحضارية ، قيم الجماهير الكادحة المناضلة ، قيم الانسانية ، قيم العصر الحديث ، عصر الاشتراكية .

٧ ـ ان مواجهة التحدي العنصري الصهيوني ، لا بد ان تنطلق اذن من مواقع فكرية حضارية تقدمية مناقضة للمنطلقات العنصرية . فالطابع الفكري الايديولوجي لهذه المواجهة يفرض نفسه منذ البداية ، لان الحركة الصهيونية تنطلق من ايديولوجية تحاول تبرير ممارساتها العنصرية واضفاء ثوب من الشرعية على لامشروعيتها وعدوانها على كل مشروعية .

وقد لا يستطيع المنظور البرغماتي ، اي فلسفة المردود والنجاح ، فلسفة المدى القريب ، هذا المنظور العملي ، قد لا يستطيع أن يضيء اكثر من جانب جزئي من جوانب هذه المواجهة ، كما ان المنظور الطبقي الاممي على اهميته ، قد لا يعطينا اكثر من جانب آخر يبقينا ضمن اطار النظرة الجزئية الى المسألة .

فالمنظور الايديولوجي المتكامل الذي يستوعب ابعاد المسألة ، لا يمكن أن يكون نتيجة تعميم مستمد من الخبرات العامة في معالجة المسائل التي سبقت ، بل هو الذي يجمع الى جانب الاطار التقدمي العام والنظرة العلمية الواقعية في خطوطها الكبرى ، القدرة على استيعاب الخصوصية البالغة الدقة في هذه المسألة بالذات ، والكثيرة التشابك والتعقيد ، سيما وان الطابع الفكري (الايديولوجي) لمواجهة العنصرية الصهيونية يرتبط مباشرة (بالطابع الستراتيجي) لهذه المواجهة ، أي بالقوة المعنية بالصراع ضد التحالف العنصري الامبريالي الصهيوني الرجعي ، وهي تشمل القوى التقدمية في العالم بأسره ، وان كان العبء الاكبر على الشعب العربي الفلسطيني والامة العربية ، وعلى يهود العالم المتحررين من العنصرية الصهيونية .

كما يرتبط البعد الايديولوجي والستراتيجي لهذه المواجهة بالبعد (التاكتيكي) المرحلي والظرفي الذي يستوعب حاجات مسيرة العالم التقدمية ، وظروف النضال والمخططات المعادية ، وتوفر الوسائل اللازمة لدحر هذه المخططات وتحقيق تقدم ثابت على طريق تحرير فلسطين من العنصرية الصهيونية .

٨ ـ على ضوء ذلك كله يتبين ان مواجهة العنصرية الصهيونية ، تتطلب عملا فكريا ونضاليا منظما يستقطب القوى الخيرة المحبة للسلام ، المستوعبة بعمق أبعاد الايديولوجية العنصرية الصهيونية وممارساتها اللاانسانية ، والمتحررة من التأثيرات والمفاهيم المعادية لتحرر الامة العربية ونهضتها المعاصرة ، الساعية بلا كلل من أجل ايجاد قاعدة نضال مشترك عربي يهودي ، تحرري ، ضد العنصرية الصهيونية ، ومن أجل جعل أرض المحبة في فلسطين نموذجا للتعاون والتعايش والتحاب بين الديانات والقوميات والحضارات المتواجدة فيها ، ومقبرة للعنصرية والتعصب والحقد ، في ظل حياة ديمقراطية واطار سياسي منسجم مع الاهداف الحضارية الانسانية للنهضة العربية المعاصرة ، وغير متعارض او متناقض معها .

ان دور المفكرين الانسانيين التقدميين دور كبير في تحقيق هذه الغاية ـ المعجزة ـ ، في نظر الكثيرين اليوم . ولكن منطق التاريخ يؤكدها بالرغم من كل مظاهر السطحية الطارئة التي تجعلها أقرب الى الحلم في ظل الظروف الراهنة ، التي يحاول فيها التحالف العنصري الامبريالي الصهيوني الرجعي ، أن يثبت العكس ، وان يجعل من احداث لبنان صورة لمستقبل الوطن العربي ، صورة التمزق والعنصريات الطائفية .

ولكن وعي العالم ، العالم التقدمي ، وشعوب العالم اجمع والقوى الخيرة فيه ، ان وعيهم الكاشف للمؤامرة التاريخية على الامة العربية وعلى مستقبل نهضتها يطوق هذه المؤامرة وهو كفيل بردها على اعقابها ، لانها ضد منطق العصر ، وضد بديهيات التطور التاريخي .

وليس هذا الملتقى الفكري العالمي ، الذي نأمل ان يرسي دعامة عمل فكري دائم في الكفاح ضد العنصرية الصهيونية وفي شتى انحاء العالم ، ليس الا دليلا حيا وعمليا على ان الصفحة الجديدة المقابلة لصفحة الواقع الراهن الذي صنعته العنصرية الصهيونية ، قد بدأت تنذر العنصرية بمصيرها المحتوم ، وتفتح الطريق أمام الحلول الجذريه الانسانية التي سوف تحقق السلام في هذه المنطقة العربية وفي العالم أجمع .

الياس فرح

بغداد

اليزابيت ماتيو

الصهيونية والعنصرية
ملاحظات عن التطورات الجديدة

كانت الطريقة التي استقبل بها الغرب قرار الامم المتحدة بادانة الصهيونية كشكل للعنصرية والتمييز العنصري ـ وهو قرار لا يعدو ان يكون مجرد اثبات للواقع ـ شاهدا على الحصار الذي ما زال يحول بين الرأي العام في بلادنا واجراءتحليل صحيح لوضع لا يمس الهدوء والتطور في منطقة واحدة فحسب وانما يمس سلام العالم كله .

فلقد كان رد فعل معظم الناس في هذه المناسبة ـ وحتى بعض مؤيدي القضية العربية ـ يتسم بالانفعال .. وبدلا من ان يفكروا في الامر ، ويتاملوا ملف المسالة بامعان ، اكتفوا بابداء سخطهم متسائلين :« كيف يمكن لليهود ان يكونوا عنصريين وهم انفسهم من ضحايا العنصرية ؟» .

وتتيح لنا ردود الفعل السطحية هذه ان نقيس مدى نقص المعلومات لدى الغالبية العظمى ، ومدى تاثير ومهارة الدعاية الصهيونية التي تنشرها وسائل الاعلام على كل المستويات ، بل كذلك وجود نوع من المحظور (التابو) ما زال متشبثا بعقول مواطنينا ـ وبشكل اوسع عقول ابناء اوروبا الغربية والولايات المتحدة ـ يمنعهم من ان يدرسوا بموضوعية كل ما يمس الدولة اليهودية .

ان عددا كبيرا من المتحدثين قد قدموا ـ وسيقدمون ـ لهذه الندوة عناصر قيمة تسهم في الاجابة على الاسئلة المطروحة علينا جميعا ، وستتناول كلمتي اساسا بعض الوقائع التي يبدو انها قد ساعدت على تطور الرأي العام تطورا مواتيا في الفترة الاخيرة ، في اتجاه تفهم افضل لطبيعة الصهيونية وما تمثله من اخطار .

وسأثير هذه الوقائع من زاويتنا نحن في فرنسا ، وبالعبارات التي ينبغي ان نستخدمها كي يفهمنا مواطنونا ، حتى نلقي الضوء على الواقع الذي يجمعنا اليوم في بغداد .

ولما كنت ـ في الوقت نفسه ـ عضوا مسئولا بجمعية التضامن الفرنسي العربي ـ التي تهتم بشكل خاص بالمشكلة الفلسطينية ـ وامينة اللجنة الفرنسية المناهضة للابارتهيد فقد استرعت اهتمامي منذ وقت طويل تلك الصلات المتعددة بين النظامين العنصريين في هاتين المستعمرتين الاستيطانيتين » اللتين غرست احداهما في جنوب افريقيا والاخرى في قلب الشرق الاوسط العربي . ومنذ صدور الكتيب الذي وضعته عن هذا الموضوع ظهرت كثير من العناصر الجديدة التي اضيفت الى ملف المسالة ، وتؤكد القضايا التي عرضها الكتاب ، وهي ان التطور المثير في التعاون ـ الاقتصادي والعسكري (الذي يشمل المجال النووي) والاستراتيجي ـ بين بريتوريا وتل ابيب يقوم ـ في هذه الحالة ـ على تقارب عميق على مستوى تاريخ النظامين وبنيتيهما ، وكذلك تقارب بين التناقضات والطرق المسدودة التي يواجهانها ، والوسائل التي يزمعان بها الخروجمنها :زيادة قهر السكان الخاضعين لهما ، وكبتالمعارضين، ومحاولات تقسيم حركات التحرير والقوى التي تؤيدها ، واللجوء المتزايد الى مساعدة الدول الامبريالية، واللجوء الى الحرب الوقائية (عن طريق « حق الملاحقة ») والابتزاز باستخدام الاسلحة النووية التي توحد الحكومتان جهودهما في صنعها .

وقد اصدرت الامم المتحدة مؤخرا وثيقة ضخمة عن قضية هذا التعاون متعدد الاشكال ، تفيدنا في ان نلقي الضوء على النصوص التي سبقاصدارها .. وابرزت ندوة هافانا في ايار ـ حزيران الماضي ، ومؤتمر دول عدم الانحياز في كولومبو الخطر الذي يمثله هذا التعاون ، الذي يزيد من اهميته زيارة فورستر رئيس وزراء جنوب افريقيا لاسرائيل في نيسان الماضي ، والاتفاق الذي عقد بهذه المناسبة . واذا كانت الصحف الغربية الكبرى قد اكتفت بابداء بضع ملاحظات على استحياء في هذا الشان فان البرافدا والمؤتمر الوطني الافريقي قد نددا بوضوح :

« .. بهذا التواطؤ الموجه ضد حركات التحرير العربية والافريقية » واكدا ان « الدولة الصهيونية تهتم بوجه خاص بشحنات المواد الاولية من بريتوريا بما في ذلك اليورانيوم ، الامر الذي يعني بوضوح بذل جهود مشتركة حقا بين الصهاينة والعنصريين في جنوب افريقيا لصنع الاسلحة النووية »

ولنذكر دون ان ندخل في عرض واسع للارقام ـ ان قيمةصادرات اسرائيل الى جنوب افريقيا ـ وفقا للارقام التي اصدرتها الامم المتحدة ـ قد تضاعفت الى ثلاثة امثالها فيما بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ ، في حين ان قيمة الواردات الاسرائيلية من جنوب افريقيا قد ارتفعت في الفترة نفسها من ٣٠٤ مليون دولار الى ٣٢مليون دولار . وقد ارتفع معدل الزيادة هذا فيما بعد ، واقترن بدعم

هياكل نظام التبادل : عن طريق اقامة الغرف التجارية والشركات المختلطة والاتفاقيات المصرفية لزيادة حجم الاستثمارات في كلا الاتجاهين .. الخ وهو اجراء ينبغي ان نبرز انه قد اتخذ في عام ١٩٧٣ اثناء مؤتمر المليونيرات الذي يوصي بأن تستخدم شركات جنوب افريقيا اسرائيل للالتفاف حول العقوبات التي تفرضها الدول الافريقية على منتجاتها .

وقالت صحيفة الجارديان في ٢ حزيران ١٩٧٣ :

« تمثل اسرائيل قاعدة مفيدة جدا لشركات جنوب جنوب افريقيا التي لا تستطيع ان تبيع منتجاتها مباشرة الى افريقيا » .

وفي عام ١٩٧٢ قامت اول بعثة دبلوماسية لجنوب افريقيا في تل ابيب ، وفي اذار ١٩٧٤ رفع وزير الخارجية الاسرائيلية مستوى التمثيل الاسرائيلي في جنوب افريقيا الى درجة السفارة. وعلى اثر هذا القرار نستطيع ان نقرأ في صحيفة معاريف (١٤ اذار ١٩٧٤) اقوالا ذات نغمة عنصرية لا لبس فيها :

« اود ان انتهز هذا الظرف السعيد لاتحدث صراحة عن بضع حقائق .. فاليوم وقد ادارت لنا الدول الافريقية السوداء ظهرها .. فاننا في حل من ذلك الكتمان الذي راعيناه حتى الان .. واني لاشعر بالارتياح اذا ما قلت ما سكتنا عنه لاسباب دبلوماسية : ان مشهد غالبية الدول الافريقية يثير التقزز » .

وبعد حديثه عن « الفوارق الاساسية والوراثية » التي تفصل بين الشعوب يختتم الكاتب حديثه قائلا :

« صدقوني ، لو ان لي الخيار بين الصداقة مع افريقيا السوداء ... والصداقة مع امة بيضاء تعرف النظام والرخاء وتعيش فيها طائفة يهودية مزدهرة لاخترت جنوب افريقيا » .

ولما كان النظام والازدهار في بلاد الابارتهيد يتعرض حاليا للخطر امام تصاعد نضال الجماهير الافريقية المقهورة فان الارتياح المعلن لتضامن يعترف الطرفان بانه يستند الى موقف موضوعي متشابه قد اخلى المكان لقلق لدى المعلقين الاسرائيليين ، وهو قلق يعكس قلق يهود جنوب افريقيا المساقين الى مواجهة الهجرة ـ والذين لا يبدو انهم على استعداد كبير للهجرة الى اسرائيل ـ.. ولكنه على وجه الخصوص قلق امام « صلة القرابة » التي يراها الرأي العام العالمي بشكل متزايد بين النظم الثلاثة في بريتوريا وساليسبوري وتل ابيب . وهناك مقال اخير بعنوان « الحل الروديسي : خطر على اسرائيل » يفصح بجلاء عن هذا الامر . فخوفا من تشبيه اسرائيل ـ كدولة المستوطنين اليروديسيين ـ بجسم غريب في المنطقة يوصي الكاتب رجال الدعاية الاسرائيلية بالتشديد على ان :

« من المناسب ان نجري تمييزا واضحا بين وضع الدولة اليهودية ووضع دولتي البيض في افريقيا الجنوبية » وان يثبتوا دون كلل « انه لا يمكن المقارنة باية طريقة بين تاريخ اليهود في بلد ينتمي لهم، وتاريخ المستوطنين في جنوب افريقيا وروديسيا ..»

وهو ينصحهم بان يبينوا استمرارية العلاقات التي تربط يهود العالم كله بارض اسرائيل محاولين ان يسدوا فراغ الفي عام لا يراها المرء في سلسلة هذه العلاقات ويبني عليه اله رب حججهم ضدنا ».

وينبغي اكثر من ذي قبل الا نتراخى بشأن هذه المسألة نظرا للوضع الذي يتطور بشكل خاص بين زيمبابوي وموزامبيق . فقد عرفنا منذ بضعة ايام ان الغارات الجوية على اراضي موزامبيق قد ادت الى مصرع مئات من المناضلين الافريقيين .. وفي اب الماضي كانت صحيفة « يديعوت احرونوت » الاسرائيلية قد اعلنت انه :

« منذ عملية عنتيبة تضغط المنظمات الخاصة التي تعمل في جنوب افريقيا وروديسيا على وكالات تجنيد المرتزقة في بريطانيا لتجنيد جنود اسرائيليين .. ويمكن لمن يتولوا مهام القيادة والتدريب ان يحصلوا على عشرة الاف ليرة اسرائيلية شهريا . وتعتزم الادارات المختصة نشر اعلانات في الصحف الاسرائيلية تقترح فيها اعمالا جذابة على اولئك الذين يشغفون بالقتال .. »

ولا بد ان يكون اسهام اسرائيل في اعمال المرتزقة الذين يساعدون القوات الاستيطانية والعنصرية في افريقيا الجنوبية قد اتضح هنا .

وكان العامل الثاني الذي دفع الرأي العام الغربي الى التطور منذ العام الماضي هو بالتأكيد تصاعد المقاومة الفلسطينية في الاراضي الخاضعة للاحتلال العسكري في الضفة الغربية من الاردن وغزة والقدس ـ وموجة المظاهرات التي اثارتها الاجراءات الاخيرة لنزع ملكية الاراضي العربية في اسرائيل في اطار « تهويد الجليل ». ولقد اثار القمع الوحشي ضد المتظاهرين الذين كانوا يريدون الحفاظ على احد الحقوق الاولية من التعليقات وسيول الانباء ما دفع الناس الى التساؤل :« لماذا مثل هذا الاصرار على احتلال ارض الاخرين ؟.. ولماذا يستمر نزع الملكية ؟» . ويكون من المنطقي ان يطرح السؤال الذي يمثل جوهر المشكلة : ما هي الطبيعة الحقيقية وما هي الاطماع الاقليمية لدولة اسرائيل .. ان اللبرة القائم منذ « بيان الاستقلال » في ١٤ ايار لا زال كما هو .. ويبين لنا نص حديث الايديولوجية التي يروج لها في اوساط الرأي العام الاسرائيلي اساتذة الفكر الصهيوني .. فقد كتب الحاخام كور ـ وهو من اكثر الحاخامات نفوذا في اسرائيل ـ يقول في صحيفة يديعوت احرونوت في ٢٣ ايار الماضي :

« ان ارض اسرائيل بكل امتداداقليمها وجدودها ملك لمجموع شعب اسرائيل ، الملايين اليهود في العالم اجمع . ولهذا فان اليهودية والسامرة والجولان وبيسان الموجودة في قلب ارض اسرائيل تنتمي لشعب اسرائيل (...) والحكومة الحالية .. ليست حكومة مجموع هذا الشعب ، وانما فحسب حكومة اولئك الذين يعيشون هنا « كرواد » للاخرين جميعا .. وليس من حق اولئك الذين يقطنون البلاد في هذه اللحظة ان يحدوا او يقيدوا وضع يدنا على هذه الارض .. والحديث عن « تنازلات اقليمية » لغو لا معنى له يرفضه العقلاء الواعون بازدراء وسخط » .

ولقد توصل الرأي العام العالمي شيئا فشيئا الى اكتشاف على من تقع مسئولية اعمال التمييز ضد العرب الذين يعيشون في اسرائيل ، وهي اعمال كثيرا ما كان يجهل حتى وجودها .وحتى اولئك الذين لا يعترفون ، لواقعيتهم السياسية ، التشكيك في الوجود القانوني لهذه الدولة ينبغي لهم على الاقل ان يتبينوا الدوافع التي تفسر امتناعها عن الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، ورفض الجلاء عن الاراضي العربية المحتلة . ولقد ساعدنا كثيرا في عملنا الايضاحي عدد من الشخصيات التي تندد ـ في اسرائيل ذاتها ـ بايديولوجية عنصرية تقوم على « حق سلفي » مزعوم يتساءل المرء اي هيئة قانونية دولية يمكن ان تأخذه في اعتبارها ... ان هذا الاستغلال السيء لعقيدة دينية عن « الاختيار » كتبرير لكل عمليات الاغتصاب ، وسند لعبارة « خلاص ارض اسرائيل » الشهيرة ، يمضي الى حد التنديد بمجرد الاعتراف بالمساواة بين الناس ـ اليهود وغير اليهود ـ امام القانون الوطني والدولي، باعتباره من اختلاق فلسفة الانوار .

وتصف السيدة الوني عضو الكنيست ومؤسسة حركة الحقوق المدنية في صحيفة « يديعوت احرونوت » العمليات التي جرت في آب ١٩٧٤ قائلة :

« واليوم يوضح لي عدد من الاساتذة والشخصيات الدينية في بلادنا ان حماسي من اجل المساواة في الحقوق بين كل الناس هو ثمرة فلسفة « انسانية » للانوار ، فلسفة مظلمة تتعارض مع اليهودية .

وباسم هذه اليهودية تمارس منذ ٥٠ عاما قهرا جماعيا ضد من لا ينتمون الى أصل يهودي . ويعبر اسباب المغتصب الذي يدين بالصهيونية الدينية سكان اليهودية والسمرا « كلابا » ،ويعبرون حقوقهم في الاراضي والدور التي يقطنونها منذ مئات السنين باطله متنافضة مع العهد الذي تلقاه آباؤنا .. وهذا ما تمثله اليهودية اليوم بالنسبة لكثير من الحاخامات وبعض الساسة وعناقسيهم ، ونحن نشهد عملية اثاره منظمة للشعب كي يتجاهل مجرد وجود الشعب الفلسطيني وامانيه في أن يعبر عن نفسه بحريه . ان اجتثاثه وحقوقه ووجوده كمجموعة عرقيه عاشت في هذه المنطقه منذ قرون وعزمه على تحقيق هويه ـ بما يتضمن السيادة السياسيه .. ان هذا كله يعامل بازدراء ..»

وهكذا نصل الى النقطة الثالثة التي أود اثارتها . لقد قدم مسيحيو الغرب ـ بوعي او بغيروعي ـ سندا للايديولوجية والسياسه الصهيونيتين بقراءتهم الحرفي fundamentalist للعهد القديم وميلهم الى « تحقيق » العهد الابوي الذي يفهم ويفسر دون اي تغير تاريخي . وتتضح هذه الظاهرة بجلاء اكبر في الدوائر البروتستانتيه الاكثر تعلقا بالكتاب المقدس (ويمكن ان تخامرنا في هذا الصدد بعض المخاوف بالنسبة لشخصية الرئيس الامريكي الجديد) .

وينبغي ان نبدي ارتياحنا لان بعض علماء اللاهوت المحدثين يسعون الى « تبديد الاسطورة » عن هذه القراءة للنصوص ، ويسعون بالزيف استغلالها في أغراض سياسية . وفي هذا الصدد يقول عالم اللاهوت السويسري البير دي يوري في العدد الاخير من المجلة ربع السنوية « دراسات لاهوتيه ودينية » التي تصدربالتعاون مع المركز الوطني للبحث العلمي :

« وحتى لو شاطرنا اللاتاويليين مقدساتهم حول حرفية الوحي، وحول الصحة التاريخية لكل قصص الكتاب المقدس ، حتى لو قبلنا فرضيه السرمديه المطلقة لكل وعد الهي ، فلن نصل الى ان نستخلص من النصوص معنى يدفعنا الى ان نحدد بشكل ملموس موقفنا السياسي في عالم اليوم .. ولا يمكن أن نلف باية طريقة حول اولئك المسيحيين الذين يعتبرون وعد العهد القديم اساسا قانونيا للمطالب الاقليمية الحاليه لدولة اسرائيل » .

وقد يبدو هذا الموقف مجرد حد ادنى ، الا ان علينا ان نضعه في اطار مسيحية غربيه تجد نفسها شريكة في احياء فكرة لاله العدالة يخدم تميزا عنصريا .

ويمكن تجانب اخر من الوضع الراهن ان يوضح طبيعة النظام الصهيوني : واود هنا ان اتحدث عن التناقضات التي تتطور داخل المجتمع الاسرائيلي ، بحكم « سياسته ذاتها » .

وينبع احد هذه التناقضات من استغلال الاراضي العربية المحتلة. وتمثل هذه الاراضي من ناحية مصدراً لارباح كبيرة بالنسبةللدولة الصهيونية في شكل محاصيل زراعية وفيرة باسعار زهيدة ،واسواقا للمنتجات الاسرائيلية ، ومصدرا للايدي العاملة المهاجرة ـ اذ تحول الفلاحون العرب الذين نزعت ملكيتهم الى عمال منخفضي الاجور، محرومين من اية امكانية للتنظيم ومن الحقوق النقابية ، عمال بالاجر يمكن فصلهم اذا شاء صاحب العمل (وتلك ميزة لها وزنها بالنسبة لاقتصاد يعاني الكساد) ، ويعانون الى حد دفع احد الصحفيين الى أن يتحدث مؤخرا عن « اكواخ العم توم » التي رآها في اسرائيل .

غير ان هذا الاستغلال كان من ناحية اخرى عاملا مساعدا على التدهور التدريجي لمجتمع كان يفخر بانه يقوم على « العمل اليهودي » والعمل المنزه عن الغرض للرواد .. لقد ادى هذا الاستغلال ذو الطابع الاستيطاني الى ظهور طبقة من الكولاك تحقق ارباحا هائله دون ان تترك اصبعا بفضل الاراضي المنزوعه التي اعطيت لها ، والعمال العرب الذين لم تتبق لهم سوى ايديهملزراعة الارض التي أعطيت للاخرين . ويعبر المعلقون الاسرائيليون الذين لا يذعنون برؤية المزايا العاجلة للوضع عن قلقهم بهذا الصدد. وهكذا يقول بوعز ايفرون في صحيفه « يديعوت احرونوت » فيعددها الصادر في ٢٤ ايار ١٩٧٥ :

« .. لقد ادى استمرار الاحتلال الى ظهور نظام شبه استعماري، وطبقه من صغار الطفاة القادرين تقهر السكان الخاضعين .. ولا يمكن لمثل هذا الوضع الا ان يولد الفساد . لقد قال لينكولن انه لا يمكن لامة ان يتألف نصفها من العبيد وتصفها منالاحرار: ان الحرية لا تنقسم . وهكذا تحول الاحتلال الى سرطان ينخر في جسمنا .. »

ويرى ايفرون آثار هذا السرطان في الطريقة التي يعامل بها أولا السكان الفلسطينيون في الاراضي المحتلة ، ثم العرب فياسرائيل، ثم اليهود الشرقيون والتي بدءا يعامل بها ذوو الاراء الساخطه .. وليس هذا بالتناقض ضئيل الشان بين الاتجاه الى صبغ النظام بالصبغه الفاشيه ـ وهو أمر يمشي مع طبيعة الامور والضرورة التي يواجهها للابقاء على صورة ذات طابع « ديمقراطي » في اعين الراي العام العالمي ويهود الشتات ، وبوجه خاص اليهود الامريكيين وهم عموما من الليبراليين .

وثمة تناقض اخر يمكن ان تكون اثاره قاتلة بالنسبة للدولة الصهيونيه هو تطور النسبه بين المهاجرين الى اسرائيل والمهاجرين من اسرائيل . فالابقاء على الاحتلال والابقاء على حالة الحرب التي ينضمنها ، وميزانية الحرب الباهظة ، كل هذا ينعكس بشكلقاس على مستوى المعيشة وحجم الواردات ، كما ينعكس في شكلخدمة عسكرية الزامية تشل الحياة العائلية والمهنية لسكان البلاد اليهود . ومن شان كل هذه العوامل عدم تشجيع الهجرة الىاسرائيل وتشجيع الهجرة منها ، وهي هجرة تضاعفت في السنوات الاخيرة الى حد استطاع معه بيجين زعيم المعارضة اليمينية المتطرفة الحديث عن « النزيف الرهيب » في حين تصف افتتاحيات الصحف هذا الاتجاه بانه « دراما سياسيه وعار قومي » (يديعوت احرونوت في ٢٢ حزيران ١٩٧٦) .

ويشعر قادة اسرائيل بهذه الظاهرة بمزيد من المرارة لانها تمس نسبة كبيرة من الشباب ومن اليهود الذين ينتمي اصلهمالى الدول العربية ممن يبدون عزمهم على العودة الى اوطانهم، وقد وجهت مبادرة بعض الحكومات العربية ـ ومن بينها العراق ـ الى عرض العودة على يهود السفارديم الى البلاد التي شاطروها طويلا مصيرها وثقافتها لطمة قاسية الى صورة الدولة الصهيونية ـ الملجا التي لا يمكن لليهود خارجها الا ان يكونوا ضحية للعداء للسامية .

واخيرا اعتقد ان ثمة عنصرا جديدا كان له دور كبير فيفتح اعين المخلصين على طبيعة الدولة الصهيونية وممارساتها العنصرية. ولقد كانت مذكرة كوينج الشهيرة التي نشرنا ترجمتها الفرنسية في نشرة « فرنسا ـ فلسطين » نوعا من النقد الذاتي للاساليب التي استخدمت في اسرائيل حتى الان ازاء الاقلية العربية ، وقد رأت في هذه الاساليب احد اسباب تصاعد النزعة القومية العربية التي تخشى آثارها ، مقرونة بهذا التزايد السكاني السريع للسكان العرب . وتعد الاقتراحات التي تقدم بها واضع الوثيقة ـ والمعروضة حاليا على رئيس وزراء اسرائيل ـ شهادة بالغة على الوان التمييز التي ادانها قرار الامم المتحدة .

فنسان مونتاي

شواهد على عنصرية اسرائيل

في أعاشر من نوفمبر ١٩٧٥ تبنت الجمعية العموميه للامم المتحدة قرارا يدين الصهيونية ويعتبرها شكلا من اشكال العنصرية والتمييز العنصري . وكلنا يذكر ان الولايات المتحدة الامريكية عارضت القرار الذي وصفه مندوبها في الامم المتحده بالقرار « المشين » ،وهددت امريكا بقطع مساعداتها المالية عن هذه المنظمةالدوليه :

واني لاشعر بالاسف الشديد ان تكون فرنسا (الرسميه) قد وقفت الى جانب الولايات المتحدة والاورغواي وساحل العاج ضد ذلك القرار التاريخي الذي وصفه المندوب الفرنسي تحديدا بـ « المظاهر الكريهة » لان ذلك القرار ، على حد قوله ، كان موجها ضد اناس طالما قاسوا من ابغض عنصرية . الا وهي النازيه ،وكانوا من اول ضحاياها . وكلنا يذكر ان من بين الاثنين والثلاثين دوله التي قاطعت التصويت نظام « بينوشيه » في التشيلي ولا يخفى على احد عمق علاقة ذاك الفاشي بمضيه حقوق الانسان العادلة ومدى التزامه بها .

لقد كتبت صحيفة « لوموند » الفرنسية في الثاني عشر من نوفمبر ٧٥ :«كان شرفا لفرنسا ان تصوت ضد ذلك القرار المخزي والمؤسف معا » .

طبيعي ان يكرروا كذبتهم المعتادة ، وطبيعي ان ارفض انا ايضا اكاذيبهم تلك . انني كفرنسي حر ومحارب ضد النازية والاحتلال النازي لوطنه وقاسى السجن تحت الاحتلال عامي ٤١ و٤٠ ، وكمراقب للامم المتحدة في القدس عام ١٩٤٨ في فترة المذابح الصهيونية لاهالي « دير ياسين » بمجموعهم وما قبل الجريمة الصهيونية ، التي نفذت بدم بارد ، واعني اغتيال الوسيط الدولي الاعزل من السلاح « الكونت برنادوت » ، والذي اشهد جازما بانه لم ينحز الى الجانب العربي ،بل حاول ان يكون منصفا ومنصفا فقط .

ليس هناك في الواقع من ينكر حقيقة ان اسرائيل دولة عنصرية ، ودليل على ذلك « قانون العودة » ذلك القانون الذي يعطي الحق لليهود بالعودة الى ما يسمى بـ « ارض الميعاد » . مع حرمان الشعب الفلسطيني من ممارسة هذا الحق والعودة الى ارضه وبيوته . ان اسرائيل كيان ديني زائف بسبب ذلك القانون«الموسوي» . ولا يحتاج الى يعرف بان اسرائيل ما هي الا دولة يهودية بحيث لا مجال للعيش ضمن قوانينها لغير اليهودي كمواطن عادي له كامل حقوق المواطنية .

انني لست الوحيد الذي يقول هذا الكلام . انني اعرف اسرائيليا يقول نفس ما اقول ويكتبه . انه«اسرائيل شاحاك » الاستاذ في الجامعة العبرية في القدس . فقد ملك شاحاك الشجاعة الكافية لان ينشر كتابا بعنوان « العنصرية ودولة اسرائيل » وضع فيه اصبعه على الخصائص الثلاث المميزة لما يسمى بدولة اسرائيل ، الا وهي :

١ ـ العنصرية .
٢ ـ الارهاب .
٣ ـ النازية .

لقد صرح شاحاك ،رئيس الجمعية الاسرائيليةللدفاع عن حقوق الانسان ، بهذه الادانة المثلثة الصريحة امامي في مؤتمر صحفي عقده في باريس ، حزيران ٧٥ . وقد نشرت « لوموند » تلك الادانة بدون تعليق .

هنا اطرح سؤالا : لم قصر صفة مجرمي الحرب على النازيين الالمان ؟ ان هذه الصفة يجب ان تمتد لتشمل الجلاد الامريكي في فيتنام وكمبوديا ولتشمل القتلة السفاكين امثال « مناحيم بيغن » .

لقد كتبت « فيليتسيا لانغر » المحامية اليهودية ،

كتابا شجاعا بالعبرية (ترجم الى الفرنسية)، وهو بعنوان « كمحامية اسرائيلية .. اني اشهد » ، وفيه الكثير الكثير عن الجرائم الوحشية للصهيونية .

واسرائيل لا تجرؤ على اسكات صوت شاحاك . انهم يقولون بعدم ضرورةاسكاته لان ذلك سيدفعه الى الجنون. ولكن اذا كان ذلك صحيحا ، فمتى نسمع بان البروفسور شاحاك هو نزيل احد المصحات العقلية ؟

انني واحد من كثيرين قاتلوا لتحرير فرنسا وناضلوا من اجل حرية المستعمرات الفرنسية سابقا . اننا مقاتلي التحرير لا نقبل ان تنسى حكومتنا او ان تغض الطرف عن استغلالنا الوطني . في عصر يقظة الامبريالية الامريكية.

طبيعي ان يعرف الجميع بان هناك تفرقة عنصرية داخل الدولة اليهودية ضد الجماعات الدينية الاخرى من مسلمين ومسيحيين عرب . ولكن هناك تفرقة عنصرية اشد داخل تلك الدوله ، وهي موجهة ضد (يهود اليهود) واعني من يعتبرون في اسرائيل «ما دون الكلاب». من هم ما « دون الكلاب » اولئك ؟ على سبيل المثال هناك اغلبية ما بين ٦٠ و٧٠ بالمئة من مجموع اليهود في فلسطين من اليهود الشرقيين « السفارديم » واليهود العرب . وهؤلاء يحدق بهم من اعلى ، والذين يمارسون هذه الفوقية والتفرقة فهم « الاشكنازي » اي اليهود الغربيون . ويعتبر الاشكنازي « السفارديم » اناسا أميين غير متحضرين ومزواجين قذرين ، ولذا يجب حرمانهم من الكثير من امتيازات الاشكنازي واحتقارهم . هذا جانب ، اما الجانب الاخر فالواقع يرينا بان يهود الاتحاد السوفييتي الذين بكوا او تباكوا لسنوات لاجل السماح لهم بالهجرة الى اسرائيل ، يهجرون الان ذاك « البلد الذهبي » الى اوروبا وامريكا وحتى الى الاتحاد السوفييتي ، لسبب بسيط هو انه ليس بمقدورهم التكيف مع ما يسمى بـ « ارض الميعاد » وقوانين دولة اسرائيل العنصرية . لقد تزايد لديهم الاحساس وهم في اسرائيل بانهم اجسام غريبة ، عديمة الانسجام ضمن حلقة عنصرية مكتملة ، ان على صعيد القوانين او الممارسة العملية . وباختصار تزايد احساسهم بانهم اشياء في غير محلها .

واسأل هنا ماذا عن يهود امريكا السود ، او يهود اثيوبيا « الفلاشا » ؟

كل الدلائل تشير الى انهم ليس من المرحب بهم ، بل ان هناك شواهد على عدم قبولهم في الدولة .

الا تفوح من كل هذا نكهة العنصرية ؟ ولن نقف طويلا امام العلاقات الخاصة « جدا » والتي تربط اسرائيل بالنظام العنصري في جنوب افريقيا .

فبلم كفر قاسم للمخرج « برهان علوية » يصوّر المذبحة التي ارتكبتها **احدى وحدات** الجيش الاسرائيلي بتاريخ ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ . ضد السكان الابرياء للقرية الفلسطينية « كفر قاسم » .

لقد كتب احد الصحفيين الفرنسيين في صحيفه « لوموند » بتاريخ ٢٥ ايار ١٩٧٥ « هل يعقل ان يتكلم اسرائيلي بمثل هذا الحقد على العرب ؟ وهل يصدق ان يرتكب الذين بقوا احياء من اليهود ، بعد مذابح الربرية النازية تلك الجريمة بقتل ذاك العدد من الفلسطينيين ؟»

يبدو لي ان الجذور الحقيقية للمشكلة تكمن هنا . ان من المفترض ان يكون اليهود اخر من يفكرون بان يصبحوا قوه محتلة او جيش احتلال ، ولكن يبدو ان كثيرين ينسون بان ضحايا الاضطهاد قد استبدلوا المعسكرات وتحولوا الى جلادين . وكما قال المرحوم « الجنرال ديغول » ، ذاك الرجل الكبير في عمق رؤيته وبعدها ، قال في مؤتمره الصحفي الذي عقده في ديسمبر ١٩٦٧ « كثيرا ما ينسى الناس ان الاضطهاد ينسل الارهاب » .

لقد كان قرار الامم المتحدة بادانة واقع الصهيونية قرارا صحيحا . ولدي اعتقاد جازم بان الصهيونية هي حركة عنصرية من الطراز الاول وبدون منازع . ولا يحتاج المرء الى اكثر من نظرة فاحصة ليجد ان الصهيونية تملك كل مقومات العنصرية ،وهي لا تعدم شيئا في هذا المجال :

فهي لا تعدم « المهيرين قولك » واعني العناصر المختارة المسيطرة ، ولا تعدم النظرية التوسعية القائمةعلى فرضية المدى الحيوي « لينستراوم » ، هذا بالاضافة الى مبدأ حق الاقوى .

ان علينا مواصلة النضال ضد العنصرية والصهيونية اينما وحيثما وجدتا ، طامحين الى الافضل ،ومعدين انفسنا لاحتمال الاسوأ . انني لاتذكر دائما كلمات كتبها « عبدالرحمن بن خلدون » في نهاية القرن الرابع عشر : « الحقيقة لا تقاوم » .

وانا اخترت معسكر الفقراء الذي لا يقاوم !

فنسان مونتاي

استاذ في الكوليج دو فرنسا

روجيه غارودي

عن الذرائع الدينية والتاريخية للصهيونية

لنذكر أولا الاهداف الاساسية للصهيونية كما عبر عنها أكثر ممثليها بروزا . .

لقد أعلن بن غوريون في عام ١٩٦٣ ما أسماه « مملكة اسرائيل الثالثة » . والمملكة الاولى هي مملكة داود ، أما الثانية فهي التي أقيمت بعد ثورة المكابي في عام ١٦٧ قبل المسيح ضد خلفاء الاسكندر ، كما سبق له أن قال في المقدمة التي كتبها عام ١٩٥٤ لكتاب « تاريخ الهاغانا » الذي أصدرته المنظمة الصهيونية العالمية : « وفي الوقت الحالي نتحدث عن الاستيطان ، وعن الاستيطان وحده . انه هدفنا في المدى القصير ، لكن من الواضح ان انكلترا تنتمي للانكليز ، ومصر للمصريين ، واليهودية لليهود ، وليس في بلادنا مكان الا لليهود . اننا سنقول للعرب : « ابتعدوا » ، فاذا لم يوافقوا ، اذا قاوموا ، فسنبعدهم بالقوة » .

لقد ظلت هذه الفكرة الموجهة نلهم الادعاءات الاقليمية للقادة الاسرائيليين . وفي آب عام ١٩٦٧ أعلن الجنرال موشي دايان : « اذا كنا نمتلك الكتاب المقدس ، واذا كنا نصير انفسنا شعب الكتاب المقدس ، فان علينا بالمثل أن نمتلك أرض الكتاب المقدس ، أرض القضاة والآباء ، أرض اورشليم وحبرون وأريحا وغيرها ، وأنا لا أعرض هنا برنامجا سياسيا ، وانما أعرض أمرا أكثر اهمية ، أعرض الوسائل لتحقيق حلم الآباء . وعلى الدول الاجنبية أن تفهم انه بالنسبة لاسرائيل ، بغض النظر عن الاهمية الاستراتيجية ، تقع سيناء ومرتفعات الجولان ومضيق تيران وجبال غرب الاردن في قلب التاريخ اليهودي » .

ويكافح مناحيم بيجين قائد اليمين الاسرائيلي من أجل ما يسميه « اسرائيل الكبرى » التي لا بد أن تضم كل المنطقة التي كان يسيطر عليها الملك داود والملك سليمان قبل ثلاثة آلاف عام .

ما هي الحجج التي تعد أساس هذه الايديولوجية الصهيونية ؟

١ ـ اولا حجة دينية :

هي حجة العهد الذي قطعه يهوه مع الشعب اليهودي حين جعله « الشعب المختار »

والنص الذي يستند اليه الصهاينة هو النص الذي يمنح كل أرض كنعان لابراهيم « واعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ... » (سفر التكوين ، الاصحاح السابع عشر الآية ٨) .

ويكشف هذا التفسير للكتاب المقدس القائم على عزل النص عن مجموع نصوص الكتاب المقدس ، وعن الاطار التاريخي ، عن تصور قبلي للدين . فالواقع ان العهد قد صيغ في أيام ابراهيم وفق نموذج العلاقات الاجتماعية في الشرق الاوسط كله في ذلك الحين : اذا كانت قبيلة تتعاهد مع سيد ما لتعده بالطاعة مقابل حمايته . ويختم هذا الميثاق ـ كما ذكر الكتاب المقدس ـ بذبح حيوانات التضحية . ويعد الختان رمزا لهذا العهد (سفر التكوين ، الاصحاح السابع عشر الآية ١٠) .

وتفسير العهد بهذه الطريقة يعني التمسك فحسب بالجوانب الخارجية الحرفية البالية لنصوص الكتاب المقدس للتمييز بين المختارين وغير المختارين .

اما ما هو أساس في تراث ابراهيم ، وتراث أنبياء اسرائيل العظام ، ثم العهد الجديد ، ثم القرآن ، فهو بالتحديد التصور العالمي الذي يخطى التمييز بين المختارين والمستبعدين ، الامر الذي لا يمكن بدونه ـ كما لاحظ جورج فريدمان عالم الاجتماع اليهودي الكبير عند عودته من اسرائيل ـ القيام بتجديد ديني لانقاذ في اسرائيل . فهو يقول : « ان الدين ينتزع من جذوره الحية ، ويعزل داخل قومية متكاملة » .

ان هذا « التصلب من جانب المؤسسة الدينية » يترك آثارا سياسية خطيرة ، فهو يؤدي الى اضفاء شرعية دينية على النزعة القومية . ولقد كانت حجج كهذه هي التي يبرر بها المسيحيون العداء للسامية ، اذ يتهمون اليهود بأنهم مسؤولون عن موت المسيح .

وذلك في حين تتخطى التوراة والانبياء هذه النزعة الطائفية ، اذ يتحدث سفر التثنية (الاصحاح العاشر ، الآية ١٦) والنبي ارميا (الاصحاح الرابع ، الآية الرابعة) عن « ختان القلب » أي عن التحول الداخلي للانسان بحلول الله فيه وليس عن مجرد الطقس الشكلي .

ان المسيحية باعلان « العهد الجديد » اي العلاقة الشخصية بين كل واحد وبين الرب ، تتخطى النزعة الطقوسية . ويقول بولس الرسول ـ وهو يهودي بالمولد ـ بوضوح (رسالة الى اهل غلاطية ـ الاصحاح الخامس ، الآية السادسة) : « لانه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئا ولا الغرلة بل الايمان العامل بالمحبة . ليس الطقس وانما الاتحاد بالله هو الذي يطهر القلوب » . ويضيف بولس الرسول (رسالة الى أهل غلاطية ـ الاصحاح الثالث ، الآية الثامنة) : « والكتاب اذ سبق فرأى ان الله بالايمان يبرر الامم سبق فبشر ابراهيم ان فيك تتبارك جميع الامم » (تكوين ـ الاصحاح الثاني عشر ، الآية الثالثة) .

وباسم هذه العالمية التي تستبعد كل عنصرية يستخلص بولس الرسول (رسالة الى أهل غلاطية ـ الاصحاح الثالث ، الآية ٢٨) : ليس يهودي ولا يوناني . ليس عبد ولا حر » .

ان كاتب « الرسالة الى العبرانيين » (الاصحاح الثامن والتاسع) يقطع كل صلة بمزاعم تميز شعب مختار ، فالرب هو رب كل الشعوب .

ويستلهم القرآن ـ وهو بدوره وريث تقاليد ابراهيم ـ نفس النزعة العالمية العامة ونفس النظرة الى الداخل الروحي في تفسيره للعهد ، انه عهد مفتوح امام كل من يعملون وفق الروح الالهي : « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » (سورة البقرة ـ الآية ١٢٤) . فلسنا اذن أمام عهد بحكم الدم وانما امام ميثاق للقلب . يقول الرسول : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكانت بربرية هتلر هي التي جعلت من الختان رمزا لجنس ، وديرت المذابح لليهود .

وباسم العنصرية عرّفت قوانين نورمبرغ النازية اليهودي بانه من ولد لأم يهودية . ويقول حاييم كوهين القاضي بالمحكمة العليا الاسرائيليه : « ومن سخرية القدر ان نفس الافكار البيولوجيه والعنصرية التي روج لها النازيون ، والتي ألهمت قوانين نورمبرغ الشائنة هي التي تعد أساس التعريف الرسمي لليهودية داخل دولة اسرائيل » (أنظر جوزيف بادي : « القوانين الاساسية لدولة اسرائيل » ـ نيويورك ١٩٦٠ ـ ص ١٥٦) .

وباسم هذا التمييز العنصري الذي ينقل الانتماء اليهودي عن طريق الام لم يتزوج نساء عربيات سوى ثلاثة من اليهود منذ قيام دولة اسرائيل .

وأما زعم استخلاص ثيوقراطية بالية من الكتاب المقدس على طريقة « السياسة المستخلصة من الكتاب المقدس عند بوسيه » لتبرير « الحق المقدس » للملوك ، فان على القادة الاسرائيليين أن يذكروا انه وجد في كل أوروبا يهود وعظوا ضد « الحق المقدس » ليضعوا البيان العالمي لحقوق الانسان ، وان من الزيغ الاجرامي في القرن العشرين أن نتافق على انفسنا زاعمين ان ثمة « حقا مقدسا » لشعب مختار .

٢ ـ وكما يتضمن الاساس الديني للصهيونية تصورا قبليا للدين فان المطالبة « بالحقوق التاريخية » لليهود في فلسطين تستند الى تسمية وتزييف تاريخيين . فالبلاد التي يسميها الكتاب المقدس أرض كنعان ، والتي سميت بفلسطين منذ أيام الرومان (أي أرض الفلستينيين) تقع على « الهلال الخصيب » الذي يمتد من الفرات الى النيل ، وهو موقع تاريخي عبرته وامتزجت فيه كثير من الشعوب. وحين جاءت قبائل ابراهام في القرن الثاني عشر قبل الميلاد من أراضي أور فيما بين النهرين لتستقر في أرض كنعان فانها لم تأت الى صحراء مهجورة ، ولم تكن أول من يقطن هذه الارض ، فقد وصل اليها الاموريون قبلهم بثمانمائة عام ، وجاءها الاراميون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وبعدهم بقليل نزل الفلستينيون في المنطقة الساحلية ، ولم يطرد داود الفلستينيين والاراميين ـ نحو ألف عام قبل الميلاد ـ الا عن طريق الحرب .

ثم أصبحت البلاد بعد ذلك اقليما اشوريا في القرن الثامن قبل الميلاد ، وغدت فيما بعد اقليما رومانيا ثم فارسيا ثم عثمانيا قبل أن تنتقل الى أيدي المستعمرين الانكليز .

فأي تلاعب تاريخي هذا الذي لا يذكر من هذا التاريخ كله سوى بضعة أحداث : هجرة ابراهيم من بين كل الهجرات ، ومملكة داود من بين كل الممالك ، وثورة المكابيين من بين كل الثورات .

ان هذه النزعة الاستبعادية عارية من الاساس تماما ، كما لو زعم البريتون ـ وهم أحفاد السلت الذين أقاموا في الارض التي أصبحت اليوم فرنسا في العصر الذي هاجر فيه ابراهيم الى أرض كنعان ـ ان فرنسا ملك لهم بحكم الحق التاريخي .

غير ان هذه الاسطورة التاريخية هي التي تغرس في أذهان الشباب الاسرائيلي في المدارس ، والاحداث التاريخيه ذات الاهمية في كتب التاريخ المدرسية الاسرائيلية هي تلك التي تخص اليهود وحدهم . ووفق ما يتلقاه هؤلاء الاطفال من تعليم لم يحدث شيء في فلسطين منذ ثورة بركوخبا في القرن الاول ، وتدمير الهيكل حتى هرتزل ومولد الصهيونية : لا مقدم الاسلام ، ولا الحملات الصليبية ، ولا غزو المغول، ولا معارك العرب ضد السيطرة العثمانية .

ان انكار الوجود على كل ما لبس يهوديا في اسرائيل سمة من سمات الروح الصهيونية . انه مبدؤها الاساسي

ان هرتزل لا يشير اشارة واحدة الى العرب في كتابه « الدولة اليهودية » (١٨٩٦) الذي كان الاساس الذي قامت عليه الصهيونية . وقد أكد هرتزل في عام ١٨٩٥ ان المشروع الصهيوني واضح للغاية وسهل التحقيق : « اعطاء أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » وفي ذلك الوقت كان يعيش في فلسطين نصف مليون عربي .

وحين سئل أبنشتاين وايزمان (أحد القادة الرئيسيين للمنظمة الصهيونية العالمية) : « وماذا سيحدث للعرب اذا أعطيت فلسطين لليهود ؟ » اجاب وايزمن : « أي عرب ؟ انهم قليلو الشأن » .

وينبغي أن نذكر انه كان هناك في عام ١٨٨٢ ، حين بدأت الهجرة الصهيونية ، ٢٥ ألف يهودي في فلسطين بين نصف مليون من السكان. وفي ١٨ تموز ١٩٤٨ رد بن غوريون على الكونت برنادوت وسيط الامم المتحدة حين طلب منه أن يترك العرب يعودون الى ديارهم فقال : « سنفعل كل شيء حتى لا يعودوا أبدا » .

٣ ـ ومن هذا التصور القبلي للدين ، وهذه الاسطورة التاريخية تنبع الروح الاستيطانية للصهيونية ، التي تتسم بنفي حقوق الغير، وثقافة الغير ، ووجود الغير .

وكما قال بوري آفنيري النائب الاسرائيلي السابق : « يوجد في اسرائيل نظام استعماري فيما يتعلق بالسكان العرب » (هاعولام هازيه ٧ آب ١٩٥٤) .

وهذه الاستيطانية تلهم الصهيونية ، في نظريتها وفي ممارستها ، في سياستها الخارجية وفي سياستها الداخلية .

أ ـ ففي النظرية الصهيونية ، ومنذ البدء ، أي في كتاب هرتزل « الدولة اليهودية » الذي أسس المذهب نقرأ « ان هذه الدولة اليهودية في فلسطين ستشكل جزءاً من متراس أوروبا ضد آسيا » . ويضيف : « سنكون موقعا اماميا للحضارة ضد البربرية » . وتلك ذريعة يتذرع بها كل المغامرين الاستعماريين .

ومن الواضح ان هذه الفكرة تغري الاستعماريين من كل نوع ، ومن هنا فانهم لا يكفون عن التضامن مع دولة اسرائيل ، ومنذ عام ١٩٣٥ طرح اللورد ويدجوود فكرة اقامة الدولة اليهودية باعتبارها الدومنيون السابع في الكومنولث البريطاني . ويقول كويستلر : « وسيصبح كومنولث المهاجرين هذا راس جسر للديمقراطية الاوروبية الى لبنان » ومن الممكن « في فلسطين ـ ووسط سكان من الاوروبيين المتعاطفين ـ اقامة قاعدة راسخة تتحكم في منافذ الشرق وقناة السويس » .

وكانت هذه هي الروح التي صدر عنها « وعد بلفور » في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ : « ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين . وسوف تبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف » . وكانت انكلترا في ذلك الحين اكبر دولة استعمارية في العالم .

ويحدد كويستلر بشكل رائع هذا الاصل الاستعماري لفكرة انشاء دولة يهودية في فلسطين فيقول : « انه وثيقة تعد فيه أمة رسميا أمة اخرى ببلاد أمة ثالثة » . وهكذا في الواقع يعمل الاستعماريون في كل

مكان ويتصرفون في الشعوب دون استشارتها .

ب ـ ان التحالف مع الامبرياليين والاستعماريين ـ في مجال السياسة الخارجية ـ سمة دائمة للصهيونية ولقادة اسرائيل .

فمنذ عام ١٨٩٠ كان تيودور هرتزل ـ ابو الصهيونية ـ يسعى للحصول على حماية بسمارك . وفي عام ١٨٩٨ اقترح على غليوم الثاني (وكان معاديا للسامية) اقامة دولة يهودية ستكون « موقعا متقدما للمصالح والحضارة الجرمانية » .

لقد بحث الصهاينه دائما عن التحالف مع دوله أجنبيه تتعارض مصالحها مع مصالح الشعوب العربيه . ففي العشرينات أسند اليهود على الانكليز ضد العرب في كل ما نجم عن الهجرة من صدامات بين الطائفتين . وعلى العكس في عام ١٩٤٠ ـ وكانت الحرب دائرة ضد هتلر ـ اقام ابراهام شتيرن منظمة ارغون السرية ضد الانكليز .

وبعد الحرب أصبحت الولايات المتحدة هي الامبريالية الاقوى ، ووجدت فيها الصهيونية حليفها الرئيسي ، اذ كان ترومان من انصار الهجرة اليهودية غير المحدودة الى فلسطين .

وفي عام ١٩٥٦ ، حين عجزت الحكومة الفرنسيه عن ادراك ان الحركة الوطنية الجزائرية هي تعبير عن ارادة عميقة لدى الشعب الجزائري وتصورت انها من تدبير القاهرة ، ارتبطت اسرائيل بها وبالانكليز لتنظيم حملة ضد قناة السويس .

وقادت نفس الروح الاستعمارية دولة اسرائيل الى التصويت في الامم المتحدة ضد استقلال الشعوب الافريقية ، والارتباط بالبرتغال الفاشمة ضد انغولا وموزامبيق ، وبصنائع فيتنام الجنوبية ضد الشعب الفيتنامي ، وبالدول العنصرية في جنوب افريقيا .

٤ ـ ونفس الروح الاستعمارية تتحكم في السياسة الداخلية لدولة اسرائيل ، فثمة تمييز ، حتى داخل اليهود ، بين أولئك القادمين من أوروبا وأولئك القادمين من اميركا ، بين « الاشكيناز » والقادمين من دول ليست بالغربية من المشرق أو من المغرب « السفارديم » ، وثالثا العمال غير المؤهلين هم من اليهود غير الغربيين ، وبالرغم من انهم يشكلون ٥٠ ٪ من السكان فليس لهم سوى ٢٠ نائبا بين ١٢٠ نائبا يضمهم الكنيست .

غير ان التمييز صارخ تماما تجاه العرب . فحتى قبل حرب ١٩٦٧ لم يكن العرب يشغلون سوى ٢ ٪ من المناصب الادارية ، وكلها من المناصب الثانوية . ولا يوجد عربي واحد في منصب القضاء أو في الوزارة . وكان لهم ٧ نواب في الكنيست بين ١٢٠ نائبا . وحتى في القطاع الخاص فان العرب الذين يشكلون الآن ١٣ ٪ من السكان لا يمثلون سوى ٤ ٪ في الجامعات أو البنوك أو المكاتب . ويعمل غالبيتهم عمالا زراعيين أو عمال بناء .

غير ان السياسة الاستعمارية تجاه العرب تتجلى على وجه خاص في الاتجاهات الرئيسيه الثلاثه للصهيونية في مجال السياسة الداخلية : أرض يهودية ، وعمل يهودي ، وثقافة عبرية .

أ ـ فقد بدأ الصهاينة ككل الاستعماريين بالاستيلاء على الارض أولا عن طريق العنف في عام ١٩٤٨ ـ اذ ولدت اسرائيل عن طريق الحرب ـ ثم بأساليب اغتصاب من نفس طراز أساليب الاستعمار .

وعلى سبيل المثال ، نشر الجيش الاسرائيلي الارهاب بذبح قرى بأسرها بما فيها من رجال ونساء وأطفال كما حدث في دير ياسين (ليلة ٩ ـ ١٠ نيسان ١٩٤٧) ، وكما حدث في القدس ويافا واللد والرملة التي انصبت عليها النيران ، ولاذت مئات العائلات الفلسطينية بالفرار هربا من الموت . واصدر القادة الاسرائيليون عندئذ « مرسوم الطوارىء بشأن ملكية الغائبين » في ١٩٤٨ (وقد أصبح هذا « المرسوم » قانونا في عام ١٩٥٠) واعتبر كل الفلسطينيين الذين غادروا ديارهم قبل أول آب ١٩٤٨ من « الغائبين » . وعلى هذا النحو صودر ثلثا الاراضي المملوكة للعرب (٧٠ الف هكتار من ١١٠ آلاف هكتار) .وعندما صدر في عام ١٩٥٣ قانون الملكية العقارية حددت التعويضات على أساس قيمة الارض في عام ١٩٥٠ ، ولكن الليرة الاسرائيلية كانت قد تعرضت لتخفيض قيمتها خمس مرات خلال تلك الفترة .

ومن ناحية أخرى كانت قد بدأت مع الهجرة اليهودية ، وبنفس الاسلوب الاستعماري السافر ، عمليات شراء الاراضي من الملاك الاقطاعيين (الافندية) غير المقيمين ، بحيث طرد الفلاحون الفقراء من الارض التي كانوا يفلحونها نتيجة الترتيبات التي تمت من وراء ظهورهم بين سادتهم القدامى والقادمين الجدد . ولم يعد امامهم ، بعد أن جردوا من أرضهم ، سوى الفرار .

وكثيرا ما يتذرع الصهاينه بأن الاراضي على هذا النحو كانت بورا او لا تفلح بعناية ، وكأنهم جاءوا الى صحراء جرداء . وهم بهذا يتجاهلون ان العرب كانوا يعيشون في وضع استعماري : كانت البلاد الاستعمارية الغربيه (فرنسا وانكلترا) تنزح ثرواتهم ، وكانوا ، شأن كل الشعوب المستعمرة ، يرزحون تحت الامية . على حين كان اليهود الغربيون القادمون قد حلوا ثقافة مماثل ثقافة المستعمرين . وفيما يتعلق بمعدات الزراعة ، كانت الاموال تتدفق عليهم من أوروبا واميركا ، مما أتاح لهم استخدام تقنيات زراعية لا يمكن أن تقارن بعمل بتقنيات الفلاحين الذين فرض عليهم النظام الاستعماري الفقر والبؤس . فخلال الفترة بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧١ بلغت الاموال التي أرسلها يهود الشتات الى اسرائيل مليارا و ٢٠٠ مليون دولار .

وعندما أخذت دولة اسرائيل مكان المستعمرين القدامى استخدمت نفس الوسائل : فالمساعدات الزراعية في مجال الري كانت توزع بطريقة تنطوي على التفرقة في المعاملة وعلى محاباة دائمة للمزارعين اليهود : فخلال الفترة بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٩ ، زادت مساحة الاراضي المروية في القطاع اليهودي من ٢٩ الف الى ١٦٤ ألف هكتار ، بينما زادت في القطاع العربي من ٨٠٠ الى ٤١٠٠ هكتار . وهكذا ظل النظام الاستعماري قائما بل أصبح أشد وطأة . ويعترف الدكتور روزنفيلد في كتابه « العمال العرب المهاجرون » الذي نشرته الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٧٠ ، بأن الزراعة العربية كانت أحسن حالا في ظل الانتداب البريطاني منها اليوم .

ب ـ ولم يكن شعار « العمل اليهودي » أقل فتكا من شعار « الارض اليهودية » الذي سبقه : كانت الصهيونية حريصة من البداية على عدم توفير العمل الا لليهود . فقد ظلت النقابات بالغة القوة المنضوية في « الاتحاد العام للعمال العبريين في ارض اسرائيل » (الهستدروت) ترفض طويلا قبول العمال العرب في صفوفها . وحين ألغيت في عام ١٩٦٦ كلمة « عبري » من اسم النقابات أعلن بن غوريون احتجاجه على ذلك . وينطبق نفس الشيء على الحزب الحاكم في اسرائيل ، فهذا الحزب « العمالي » كما يزعمون يعلن رسميا وبصراحة انه لا يقبل في صفوفه سوى اليهود ويرفض الاغيار (جوييم) .

ويؤكد القادة الاسرائيليون ان ثمة انخفاضا قد حدث في البطالة بين العرب الفلسطينيين منذ عام ١٩٦٧ . وصحيح أن ٥٠ الف عربي يعملون الآن في المنشآت الاسرائيلية بعد أن تعرضوا لاقصاء طويل عن العمل ، ولكن ظروف عملهم ما زالت هي نفس الظروف التي كان يعمل فيها كل الخاضعين للاستعمار : فعند تساوي المؤهلات يتراوح الفارق بين أجر العامل اليهودي والعربي بين ٣٠ و ٥٠ بالمائة .

كما تتجلى التفرقه في سياسة الاسكان ايضا ، فالدكتور اسرائيل شاحاك رئيس الرابطة الاسرائيلية والاستاذ بالجامعة العبرية بالقدس يخبرنا في كتابه « العنصرية في دولة اسرائيل » (ص ٥٧) ان في اسرائيل مدنا كاملة (الكرمل ، الناصرة ، ايليت ، هاتزور ، أرد ، ميتزب ـ رامان وغيرها) يمنع فيها رسميا سكنى غير اليهود .

ج ـ وتسود نفس الروح الاستعمارية على الصعيد الثقافي . ولن نستطيع تعريف هذه الروح بأفضل مما صنعه أوري أوريـاني

مستشار رئيس الوزراء الاسرائيلي للشؤون العربية حين قال : « لا ريب ان من الافضل الا يكون هناك طلاب عرب . ولكن هناك اشياء لا تتوقف علينا ولا نستطيع تجنبها وينبغي علينا أن نبحث عن طريقة لتقليل الاضرار » .

ان الحضارة العربية وتاريخها يتعرضان لتجاهل كامل على نحو ما كان يحدث في ظل الاستعمار البريطاني أو الفرنسي . ومن الامور ذات الدلالة ان ٤ بالمائة فقط من الطلاب المتقدمين لامتحانات البكالوريا في اسرائيل ـ وكل جيرانها من العرب ـ يدرسون اللغة العربية كلغة ثانية .

انهم يريدون أن يمحوا من أذهان الفلسطينيين أي ذكرى عن ثقافتهم وتاريخهم . فالطلاب العرب يجبرون على دراسة التاريخ اليهودي بأكثر مما يدرسون تاريخهم هم : فالوقت المخصص لدراسة الكتاب المقدس يبلغ ستة أمثال المخصص لدراسة القرآن .

ان مجمل السياسة الاستعمارية العنصرية القائمة على مبادىء الارض العبرية والعمل العبري والثقافة العبرية ، قد عرفه الجنرال موشي دايان تعريفا رائعا في عام ١٩٦٧ . فحين سئل عن مقدرة اسرائيل على استيعاب السكان العرب في حالة ضم الاراضي المحتلة الى اسرائيل ، أجاب : « اننا قادرون على ذلك من الناحية الاقتصادية ، ولكنني أعتقد أن هذا لن يتمشى مع خططنا المقبلة . ذلك انه لن يتمخض عن دولة يهودية بل عن دولة مزدوجة القومية ، دولة عربية ـ يهودية . ونحن نسعى الى دولة يهودية » . وهذا تصريح لا تنقصه ميزة الوضوح البالغ .

والواقع ان هذا يمثل القيد الوحيد على الاطماع الاقليمية للزعماء اليهود . واذ يبلغ معدل المواليد ٢٤٢ في المائة بين اليهود ، و ٤٤٤ في المائة بين العرب ، فقد أعلنت غولدا مائير انها تواجه كابوسا مزعجا حين تفكر « في المواليد الفلسطينيين » .

ان الصهيونية تكرس بالضرورة دولة اسرائيل للتوسع ، ذلك انه اذا جاء الثلاثة عشر مليون يهودي الذين يعيشون في العالم لبية لنداء الصهاينة ، فان مشكلة « المجال الحيوي » لاسرائيل سطرح نفسها بحدة . فالميثولوجيا الصهيونية تمنع اسرائيل من أن تكون دولة قومية ، كالدول الاخرى . لكن الواقع ان الذين جاءوا لتحقيق « الوعد » لا يمثلون سوى أقلية ضئيلة من بين الذين يقيمون في اسرائيل . فقد كان اثر « قانون العودة » بالغ الضآلة ، وكان هذا من حسن الحظ ، ذلك لان اليهود في كل بلاد العالم قد نهضوا بدور بارز في كل مجالات الثقافة والعلم والفن ، وسيكون من المحزن أن تحقق الصهيونية الهدف الذي حدده مناهضو السامية لانفسهم ، الا وهو انتزاع اليهود من أوطانهم لوضعهم في غيتو عالمي . واليهود الفرنسيون مثل بالغ الدلالة في هذا الصدد ، فبعد توقيع اتفاقيات ايفيان في عام ١٩٦٢ وتحرير الجزائر ، غادر الجزائر ١٣٠ الف يهودي ، لم يذهب منهم الى اسرائيل سوى ٢٠ ألفا بينما ذهب الى فرنسا ١١٠ آلاف يهودي . ولم تكن هذه الهجرة نتيجة لاضطهاد حماد للسامية ، لاننا نجد نفس النسبة بين المستوطنين الفرنسيين غير اليهود الذين تركوا الجزائر ، ولم تكن مناهضة السامية سبب هذه الهجرة ، بل كان سببها الاستعمار الفرنسي السابق للجزائر ، وقد عرف اليهود الفرنسيون نفس المصير الذي عرفه الفرنسيون الآخرون في الجزائر .

بالاختصار ، فان المهاجرين اليهود الى اسرائيل يجيئون كلهم تقريبا هربا من الاضطهاد المناهض للسامية .

ففي عام ١٨٨٠ بلغ عدد اليهود في فلسطين ٢٥ ألفا من مجموع سكانها البالغ عددهم ٥٠٠ الف نسمة .

وابتداء من عام ١٨٨٢ بدات الهجرة الواسعة النطاق بعد المذابح الكبرى ضد اليهود في روسيا القيصرية .

وهكذا وصل ٥٠ ألف يهودي الى فلسطين خلال الفترة من عام ١٨٨٢ الى عام ١٩١٧ . ثم جاء اليها بعد ذلك ـ خلال فترة ما بين الحربين ـ المهاجرون البولنديون ومهاجرو المغرب فرارا من الاضطهاد .

ولكن الكتلة الاكبر جاءت من المانيا بسبب السياسة البشعة المناهضة للسامية التي انتهجها هتلر : فوصل على هذا النحو قرابة ٤٠٠ الف يهودي الى فلسطين قبل عام ١٩٤٥ .

وفي عام ١٩٤٧ ، أي في عشية انشاء دولة اسرائيل ، كان هناك ٦٠٠ الف يهودي في فلسطين من مجموع سكانها البالغ مليونا و ٢٥٠ الف نسمة .

وبدات عندئذ عملية منظمة لنزع الفلسطينيين عن أرضهم . فقبل حرب عام ١٩٤٨ كان هناك ٦٥٠ الف عربي يعيشون في الاراضي التي أقيمت عليها فيما بعد دولة اسرائيل . وفي عام ١٩٤٩ كان كل ما بقي منهم هو ١٦٠ الفا . وبسبب ارتفاع معدل المواليد اصبح عددهم ٤٥٠ الفا في نهاية عام ١٩٧٠ . وقد كشفت الرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان ان اكثر من ٢٠٠ ألف بيت عربي قد نسف في اسرائيل والضفة الغربية خلال الفترة بين ١١ يونيو ١٩٦٧ الى ١٥ نوفمبر عام ١٩٦٩ .

معنى هذا ان الصهيونية تفرض على الفلسطينيين نفس المصير الاليم الذي تعرض له ضحايا المذابح الاجرامية ضد اليهود .

ويهمني أن أقول بوضوح ان العدل يقتضي ان يكون للمضطهدين ـ وهو وصف ما ينطبق على اليهود في الماضي وبخاصة في روسيا وبولندا والمانيا ـ ملاذ ووطن .

ولكن لماذا ينبغي على الشعب الفلسطيني أن يدفع ثمن جرائم هتلر والقياصرة الروس ، وجرائم العنصرية ومعاداة السامية في العالم كله ، وهي جرائم لا مسؤولية فيها على الاطلاق للشعب الفلسطيني ؟

لقد كان تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية يتصور هو نفسه عدة حلول ممكنة (وهي جميعا مستمدة من نفس الروح الاستعمارية) : توطين اليهود في الارجنتين أو في كينيا او في قبرص ، أي في اراض تسيطر عليها الامبريالية .

وغداة الحرب العالمية الثانية ، أي بعد أن ذبح النازيون بوحشية ستة ملايين يهودي ، كان من الطبيعي أن تقدم جمهورية المانيا الاتحادية أحد أقاليمها الى اليهود كملاذ لهم على سبيل التعويض .

ان مصيبة دولة اسرائيل ، تتمثل في انها خلقت بأيدي الدول الاستعمارية الكبرى وفقا لمبادىء الاستعمار : ففي حين كان اليهود في عام ١٩٤٧ يملكون حوالي ٦ بالمائة من الارض ، جاء مشروع التقسيم الذي وضعته حينذاك الدول الغربية ليعطيهم ٥٤ بالمائة من الارض ، واحتل الصهاينة ٨١ بالمائة في واقع الامر عن طريق العنف والحرب .

وهذا الظلم الذي لحق بالفلسطينيين الذين طردوا من اراضيهم ، وشتتوا ، هو أصل كل النزاعات التي نشبت منذ ذلك الحين . وقد تفاقم هذا الظلم في يونيو ١٩٦٧ ، فقد قام السلاح الجوي الاسرائيلي دون اعلان للحرب بتدمير الطيران المصري ، مقلدا بذلك الطريقة التي استخدمها الفاشيون اليابانيون حين حطموا الاسطول الامريكي في بيرل هاربور .

ومنذ ذلك الحين لم يحترم القادة الصهاينة قط قرارات مجلس الامن أو النداءات التي وجهها اليهم ، وواصلوا احتلال الاراضي الفلسطينية التي استولوا عليها بعد « حرب الايام الستة » .

* * *

ما هي اذن الحلول الممكنة لهذا النزاع الدائم الذي يعد اثرا

من آثار الاستعمار ؟

لقد عرض ياسر عرفات المشكلة بوضوح في الامم المتحدة حين تحدث في ١٣ نوفمبر ١٩٧٤ عن موقف منظمة التحرير الفلسطينية فقال : « ان ثورتنا لا تنطلق من مواقف عنصرية او دينيه . فهي ليست موجهة ضد الانسان اليهودي بوصفه يهوديا ، بل ضد الصهيونية العنصرية والعدوان . فنحن نناضل حتى يستطيع اليهودي والمسيحي والمسلم ان يعيشوا معا على قدم المساواة دون آي تمييز عنصري أو ديني . ونحن لا نفرق بين اليهوديه والمسيحية . فنحن نعارض الصهيونية الاستعمارية ولكننا نحترم الدين اليهودي لانه جزء من تراثنا » .

ان المشكلة الفلسطينية لا يمكن أن تحل الا بمثل هذه الروح ، اي بوضع حد لكل المناورات الخارجية للامبريالية ، وبالاعتراف بحق الجميع في تقرير المصير وفي العودة الى أراضيهم . وهذه العودة الى الارض لا يطالب بها الفلسطينيون باسم « حقوق تاريخية » مزعومة يعود تاريخها الى آلاف مضت من السنين ، وانما باسم العدالة الراهنة لا اكثر ، ومن أجل حقهم في العمل على الارض التي انتزعت منهم وحقهم في الا يكونوا غرباء في وطنهم .

وليس هناك من شك في ان الطريق سيكون طويلا ، وانه لا يمر باستعباد الفلسطينيين أو بتدمير اسرائيل .

فكما يقول ياسر عرفات : « لقد عرف شعبنا على امتداد سنوات طويلة ويلات الحرب والدمار والتشريد والطرد والارهاب ... ولكن هذا كله لم يجعلنا عنصريين . ولهذا السبب فاننا نشعر بالالم للمفرقة التي عانى منها اليهود بسبب معتقداتهم » . وعلى هذه القاعدة يمكن أن تنشأ ـ كما تقترح منظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٦٧ ـ دولة ديمقراطية وعلمانية يعيش فيها اليهود والعرب كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات .

ولكي يصبح تقرير المصير ممكنا ، هناك عدة شروط مسبقة لا بد من توفيرها : ينبغي أولا أن ينهي القادة الاسرائيليون احتلالهم للاراضي التي استولوا عليها في عام ١٩٦٧ ، وهو الامر الذي لم تكف الامم المتحدة عن المطالبة به .

ولا يمكن بعد ذلك أن يكون هناك حل سلمي للمشكلة طالما استمر القادة الاسرائيليون في انتهاج سياسة صهيونية تدفعهم الى التوسع وتمنع اسرائيل من ان تكون دولة قومية كالدول الاخرى . ان الصهيونية هي الد أعداء اسرائيل ، فهي اذ تجعل من اسرائيل جيبا غربيا في الشرق الاوسط وتمنعها من الاندماج في مجموع شعوب الشرق الاوسط ، تحكم على اسرائيل بوضع شبيه بوضع الصليبيين المسيحيين منذ ثمانية قرون .

وفي سبتمبر ١٩٦٧ شبه الجنرال اسحق رابين ، القائد الاعلى للجيش الاسرائيلي ، موقف الصهاينة بموقف الصليبيين . وينبغي ان يتامل الصهاينة هذه المقارنة .

فالصهاينة يبحثون مثل الصليبيين عن تبرير ديني ، وهم يرفضون مثلهم الاندماج في السكان المحليين ، ويعتمدون فقط على التفوق العسكري . والصهاينة مثل الصليبيين يعتمدون على التدفق المستمر لرؤوس الاموال القادمة من الغرب في صورة تبرعات واسلحة ورسوم حج . لكن الصليبيين انتهوا بفشل ذريع : فبعد حروب استغرقت ثمانية اجيال ، واستمرت منذ الاستيلاء على القدس في عام ١٠٩٩ حتى رحيل آخر صليبي من عكا في عام ١٢٩١ ، طرد الصليبيون الى البحر .

ان على الشعب الاسرائيلي ان يتامل هذه التجربة التاريخية ، وان يدرك ان الصهيونية تقوده الى حالة من الحرب الدائمة على المدى القصير والى الاخفاق الكامل على المدى الطويل .

اما اذا وعى الشعب الاسرائيلي أخطار الايديولوجية الاستعمارية للصهيونية ، فانه يستطيع أن يقيم مجتمعا لن يكون عندئذ ثيوقراطية انقضى عهدها بل سيكون مجتمعا علمانيا متسامحا ، وسيتاح له بوجه خاص الفرصة لكي يندمج باخلاص في مجموع الشرق الاوسط بدلا من ان يكون جيبا غربيا معزولا .

صحيح أنه توجد عقبات أخرى امام اقرار سلام دائم يقوم على حق تقرير المصير في فلسطين ، والنظام الملكي الهاشمي الحالي في الاردن هو الذي يشبه الثيوقراطية الاسرائيلية ، ويضع يده على أرض فلسطينية ، وينواطأ مع اسرائيل والولايات المتحدة في ذبح الفلسطينيين في الاردن خلال « ايلول الاسود » عام ١٩٧٠ .

وليست المشكلة الفلسطينية مشكلة حدود ، ولا هي مشكلة جنس ، ولا مشكلة دين ، انها ليست مشكلة « حقوق تاريخية » ، فليس لاحد في العالم « حق تاريخي » مزعوم ممتاز يقوم على اسطورة ، سواء كانت « عبء الرجل الابيض » « برسالته المدنية » المزعومة التي تغنى بها ريتشارد كيبلنج كذاعية للاستعمار الانكليزي ، ام كانت اسطورة « الجنس الآري » كجنس مختار التي استخدمها هتلر لتبرير مزاعمه عن الفراغ الحيوي ، أو الايديولوجيه الصهيونية المهلكة للفلسطينيين والقاضية على الاسرائيليين .

ان المشكلة الفلسطينية مشكلة سياسية واجتماعية . ومفتاحها هو الاعتراف للجميع بحق تقرير المصير .

ونظرية « الحقوق التاريخية » ستقود حتما الى اعادة تشكيل خريطة العالم بقنابل المدافع .

وينبغي لنا أن نتامل مثال افريقيا . فلا شك ان الحدود الراهنة لغالبية الدول الافريقية هي من تركة الاستعماريين ، الذين قطعوا اوصال افريقيا بشكل تعسفي في مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ وفق مصالحهم وحدها . وبعد الاستقلال توفر لرؤساء الدول الافريقية من الحكمة ما دفعهم الى عدم تغيير هذه الحدود . ولا شك ان افريقيا كانت ستغرق في النيران لو انهم ارادوا ـ باسم « الحقوق التاريخية » ـ بعث امبراطورية المانديغ مثلا او امبراطورية سنغاي او سيادة البوهل . وليست هذه الحكومة سوى المرحلة الاولى الى ان تتوفر وحدة افريقية راسخة حقا ، لا هي على اساس الحقوق التاريخية » اي على أساس الماضي ، وانما على اساس اشكال التعاون بين الافريقيين التي تتمشى مع المطالب الجديدة للشعوب ، اي على اساس المستقبل .

وفي وجه كل اشكال الاستعباد العنصري أو الديني أو الحضاري التي تتخفى بستار « الحقوق التاريخية » ليس ثمة من حل الا عن طريق الحرص الشامل على النظر الى الانسان الآخر . ان الانسان الذي يختلف عني ، كجزء من ذاتي ، هو وحده الذي يمكن ان يجعل مني انسانا كاملا .

قال ماركس : « ان شعبا يقهر غيره لا يمكن ان يكون شعبا حرا » .

وقد اكد ياسر عرفات ان الفلسطينيين لا يستلهمون روح العنصرية ولا الثار ، وانما يقودهم الحرص على وضع حد للانغلاق ، وعلى ان يكسبوا للجميع الحق في تقرير المصير . وعن هذا الطريق وحده يمكن لفلسطين ـ كما لغيرها من انحاء العالم ـ ان تبني مستقبلا انساني الملامح .

روجيه غارودي

السيد يسين

الصهيونية ايديولوجية عنصرية

تعريف بالمصطلحات الاساسية

اثار القرار الذي أصدرته الجمعية العامة للامم المتحدة الخاص باعتبار الصهيونية صورة من صور العنصرية ردود افعال واسعة المدى. والحقيقة ان هذا القرار يؤكد اهميـــة تأصيل دراسة الظـــاهرة الصهيونية التي قامت على اساسها عملية الاستيطان الاستعماري في فلسطين . وتركز دراستنا على الصهيونية باعتبارها ايديولوجيـــة عنصرية ، ويقتضي ذلك منذ البداية تحديدا لما نعنيه بالايديولوجيـــة والعنصرية .

١ ــ الايديولوجية :

ويمكن لنا ان نقرر ان مفهوم الايديولوجية من المفاهيم التـــي تعددت الاتجاهات بصدد تعريفها (٢) . غير انه يمكن ــ اذا ما تبينـــا وجهة نظر آدم شاف ــ (٣) أن نقسم التعريفات التي اعطيت للايديولوجية ــ بوجه عام ــ الى ثلاث فئات : التعريفات التكوينية ، والتعريفـــات البنيانية ، والتعريفات الوظيفية .

ــ والتعريف التكويني Genetique للايديولوجية ينطلق من الظروف التي أنبتتها أو صاحبت نشأتها .

ــ اما التعريف البنياني Structurale للايديولوجية فهو ينطلق من السمات التي تميز ــ من وجهة النظر المنطقية أو من وجهة نظر المعرفة ــ الاحكام والقضايا التي تكون الايديولوجية عن غيرهـــا من الايديولوجيات من ناحية ، أو عن غيرها من الابنية الفكرية الاخرى كالنظريات العلمية من ناحية اخرى .

واخيرا فالتعـــريف الوظيفـــي Fonctionnele للايديولوجية يركز على ويشير الى الوظائف التي تقوم بها الايديولوجية في مواجهة المجتمع والجماعات الاجتماعية والافراد .

وقد عمد آدم شاف الى تبني التعريف الوظيفي للايديولوجية ، وذلك لانه يرى انه اكثر تعريفات الايديولوجية وصفية وحيادا ، وهو بذلك يمكن ان يكون اكثر التعريفات قبولا لدى وجهات النظر المختلفة . وفي هذا الضوء يقترح آدم شاف التعريف التالي :

« الايديولوجية هي نسق من الافكار يقوم ــ في ارتكازه علـى نسق محدد من القيم ــ بتحديد اتجاهات الناس وسلوكهم ازاء الاغراض المتبناة المتعلقة بتطور المجتمع ، أو الجماعـــات الاجتماعيـــة او الافراد » .

وبالرغم من ان هذا التعريف الوظيفي يمكن قبوله بوجه عام ، لانه ينطبق على الصهيونية كما ينطبق على غيرها من الايديولوجيات الا ان استبعاد آدم شاف للتعريفات التكوينية والتعريفات البنيانية مسالة غير مقبولة . ذلك انه لا يكفي ان نشير الى الوظيفة او الوظائف التـــي تقوم بها الايديولوجية ، ولكن ينبغي ــ اذا ما كنا في سياق ودراسة نقدية ــ ان نحدد الاصول التكوينية للايديولوجيـــة محل الدراسة ، وكذلك أن نبرز العناصر الاساسية الفكرية المكونة لها . وينطبق هـذا على وجه الخصوص على الصهيونية ، فلا يمكن لنا ان نفهم الوظـائف التي تقوم بها بالنسبة لجماعات الصهيونيين ، بغير ان نحدد أصولها وبنـاءهـا الداخلـي .

٢ ــ العنصريـــــة :

تقوم العنصرية على فكرة رئيسية مؤداها ان مجموعة محددة مـن البشر يتسمون بكونهم طبيعيا أسمى من غيرهم (٤) . وعادة ما يتـــم توصيف السمات المميزة للجماعة المختارة سواء عـــلى أساس فيزيقي يتعلق بالتكوين الجسمي ، أو على أساس حضاري خالص يتعلق بابراز السمات الثقافية التي تميز الجماعة المختارة . وهناك ايضا عدد كبير من السمات والقيم عادة ما ينظر اليها باعتبارها علامات على السمـو والامتياز مثل العبقرية العسكرية والتفوق التكنولوجي ، او كما يقرر الصهاينة انهم أسمى الجماعات الانسانية لانهم شعب الله المختـار . وايا كان الجنس الذي تزعم الايديولوجيات العنصرية تفوقه وسموه ، فان العنصري عادة ما يؤكد ان جماعته التي يحاول اعلاء شانها سامية من وجهة النظر البيولوجية ، ومن ثم فان هذا السمو ــ ما دام يرتـد الى أصل بيولوجي ــ سيستمر الى الابد . ومن أبرز المذاهب العنصرية في العصر الحديث ، الايديولوجية النازية ، التي كانت لها رؤيـــة تسعى لتحقيق سلام « يؤسس بواسطة السيف المنتصر لشعب مكـون من السادة ، سيضع العالم في خدمة حضارة ارقى » (٥) . ومن ناحية اخرى أقامت اليابان قبل هزيمتها في الحرب العالمية الثانية قومينهـا المتطرفة وسياستها التوسعية على اسطورة قومية عنصرية . واذا انتقلنا الى افريقيا نجد ان العنصرية تتمثل في محاولة اقامة فجوات لا يمكن سدها بين البيض المستعمرين والسود اهالي البلاد الاصليين . وقـد تحدثت سارة ميللين في العشرينات عن جنوب افريقيـــا مقررة ان « الفجوة بين الاسود والابيض بالغة الاتساع بحيث لا يمكن سدها » (٦) ونفس هذا الحكم نجده ــ بصيغة اخرى ــ لدى غلاة المفكرين الصهيونيين حين يقررون ان هناك فروقا اساسية بين اليهود من ناحية وبين «الاغيار» من ناحية اخرى ، ومن هنا السمة النفسية السائدة لدى اليهـــود وهي الشك في كل من هو غير يهودي .

ولقد استخدمت العنصرية لتبرير أوضاع اقتصادية وسياسيـة واجتماعية بالغة التنوع . واذا استقرانا التاريخ الاستعماري الامبركي في سنواته الباكرة ــ على سبيل المثال ــ فاننا نجد ان المجتمع الاميركي الذي كانت تسوده نزعات دينية قوية في هذا الوقت ، كان لا بد لـه

ان يبحث عن تبرير لنظـــام العبودية الـــذي فرضه على الزنوج ، وخصوصا بعد تحولهم الى المسيحية ، فالدين المسيحي لا يسمـــح لمسيحي بأن يمتلك ويستعبد مسيحيا آخر ، وكـــانت العنصرية هي المخرج ، على أساس ان الزنوج جنس أدنى مرتبة من البيض مما يبرر استعبادهم ، وذلك ـ كما قرر جيربخان بصراحة يحسد عليها ـ ان الملكية هي الملكية ، وهي لذلك تحتاج لحمايتها الى حجج وجيهة .

ومن ناحية اخرى اغرق العنصريون الالمان في اسباغ الصفـــات الرديئة على اليابانيين ، وكثيرا ما تحدثوا عـــن « الخطر الاصفر » ، وكانوا ينعتون اليابانيين بانهم « قردة مدربون » ، غير انه لما استدعت التطورات السياسية ضرورة ضم اليابان الى دول المحور انبرى « علماء الاجناس » الالمان يتحدثون عن اليابانيين بكونهم ـ في نهايـة الامر ـ ينتمون الى الجنس الآري .

والواقع أن الفكر العنصري الحديث يستمد أصوله من كتابات الكاتب الفرنسي دي جوبنو الذي نشر بين عامي ١٨٥٣ ـ ١٨٥٥ كتابا شهيرا عنوانه « دراسة في عدم تساوي الاجنـاس البشرية » (٧) . وقد ضمن جوبنو هذا الكتاب نظريته العنصريةالكاملة ، التي هي بمثابة تفسير عنصري للتاريخ الانساني . ففي وجهة نظره ، اذا ما أردنا أن نبحث أسباب صعود وانهيار المجتمعات والحضارات الانسانية ، نعثر نجدها في الاسباب الاقتصادية أو السياسية أو الدينية أو الاجتماعية. ذلك ان الاسباب الحقيقية ترد للعامل العنصري . ومن ناحية اخرى ، فقد زعم جوبنو ان الاجناس الانسانية يمكن تصنيفها الى أجناس ممتازة وأجناس منحطة . والاجناس الاولى قادرة على التقدم ، اما الاجنـاس الثانية فمحكوم عليها بالتخلف الابدي .

وقد سار على خطى جوبنو عدد آخر من الكتاب والباحثين ، من ابرزهم تشامبرلين في كتابه « أساس القرن التاسع عشر » وكذلك عالم الانثروبولوجيا الفرنسي فاشي دي لابوج وعالم الانثروبولوجيا الالماني اوتو آبون (٨) .

واذا كانت العنصرية الحديثة قد ولدت على أيدي جوبنو فـي القرن التاسع عشر ، فلم يكن ذلك في الحقيقة مجرد صدفة . ذلك ان علم اجتماع المعرفة قد علمنا ان الافكار لا تنشأ وتتطور وتتغير في فراغ، وانما لا بد من ربطها باللحظة التاريخية وبنوعية البناء الاجتمـــاعي السائد في المجتمع . واذا طبقنا هذا المنهج ، اكتشفنا ان صعود نجم الفكر العنصري ، قد صاحب نشوء واتساع النظام الامبريالي العالمي الذي قام على استعمار ونهب شعوب العالم الثالث . وكان لا بد لـه حتى ينجز مهمته أن يجد المبرر لذلك ، وهكذا ظهرت دعاوى « عبء الرجل الابيض » في تمدين الشعوب المتخلفة وغيرها من الصيغ العنصرية التي قصد بها ايجاد السند الفكري للعملية الاستعمارية .

من هنا نكتشف الصلة الوثيقة بين العنصريـــة والاستعمار ، ولذلك ليس غريبا ان نجد الصهيونية باعتبارها ايديولوجية عنصرية ، هي الحركة السياسية التي قام على أساسها الاستعمار الاستيطاني في فلسطين .

الصهيونية وبناء المجتمع الاسرائيلي العنصري

أولا : بناء المجتمع اليهودي في فلسطين :

نشأ المجتمع اليهودي في فلسطين وتبلور نتيجة لجهود الجماعات الصهيونية التي ظهرت في اوروبا الشرقية والوسطى ، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر . وقد رفعت هذه الجماعات الصهيونية شعـــارا مؤداه « انه لا يمكن ممارسة حياة يهودية صحيحة في اي مجتمـــع حديث خارج فلسطين » . وزعمت الصهيونية ان الحياة في ظـــل المجتمعات الاوروبية الحديثة من شأنها ان تجعل اليهود يتمزقون بيـــن السحق الروحي والحضاري ـ الـــذي سيترتب على خنق حياتهم التقليدية والمجتمعية تحت وطأة التنظيمات الاقتصادية والسياسيـــة الحديثة ـ والفناء المادي عن طريق « الاندماج التام » في المجتمـــع . ومن هنا زعمت الصهيونية انه في فلسطين فقط يمكن ان ينشأ مجتمع يهودي حديث ، حيث يمكن التأليف بين اليهودية والحضارة الانسانية العامة ـ او بعبارة اخرى ـ بين الاصالة والمعاصرة ، وتبني المجتمـــع اليهودي في فلسطين ايديولوجية متكاملة بمعنى انه صاغ نسقا محددا من الافكار المترابطة فيما بينها بطريقة عضوية وجعلها دليلا للعمـــل وتقنينا للسلوك ، وقد انطلق من ايديولوجيـــة « الريـــادة » نسبة « للرواد » الذين هم في الحقيقة طلائع المستعمرين الاوائل الذين هبطوا الى أرض فلسطين ليكونوا مقـــدمة الاستعمار الاستيطاني لفلسطين . وحاولت الصهيونية أن تبني نموذجا مثاليا « للرائد » الذي صـــور باعتباره اليهودي الامثل ، ومن هنا ألح القادة الصهيونيون الاوائل على ضرورة ان يطابق المستوطنون أنفسهم واتجاهاتهم وسلوكهم مع السمات التي يتميز بها وأهمها التضحية . فالرائد هو الشخص الذي عـــلى استعداد لحرمان نفسه من متع الحياة والفوائد المادية ، وهو قـــادر على أن يطوع أسلوب حياته ليعيش عيشة مقشفة . ولم يكن هـــذا التقشف مقصودا لذاته ـ بالرغم من انه أصبح بعد ذلك اتجاها سائدا ـ ولكن بغرض القيام بالاعباء الجسيمة التي حددتها لنفسها جماعات الرواد لخلق المجتمع اليهودي في فلسطين .

أما السمة الثانية للرائد فهي أن يمارس العمل بنفسه ، مع تحريم العمل المستغل . وقد حدد هذا الاتجاه طبيعـــة الانشطة التي وجهت لخلق المجتمع اليهودي في فلسطين ، ونقصد التركيز الشديد عـــلى العمل غير المستغل في الميدان الزراعي واليدوي باعتباره وسيـــلة رئيسية لبعث شباب « الامة اليهودية » ولخلق انسان يهودي جديد .

وقد ركزت ايديولوجية « الريادة » على فكرتين اساسيتين هما : ضرورة الاعتماد على الاكتفاء الذاتي ، واهمية تنمية وســـائل الدفاع

والحقيقة أن ايديولوجية الريادة التي كـــانت الموجه الرئيسي ـ بما تضمنته من مبادىء وقيم واستراتيجيات ـ لجماعات المستعمرين الصهيونيين الاوائل في فلسطين ، لتكشف لو حللناها بدقة عن جـذور الفكر العنصري الذي صدرت عنه الصهيونية .

ويتمثل ذلك أساسا في المهام التي ادعتها الصهيونية لنفسهـا وهي بصدد خلقها للمجتمع اليهـــودي في فلسطين ، وفـــي نظرة الصهيونيين الى العرب الفلسطينيين أهل البلاد الاصليين ، وأخيرا في السياسات الاستيطانية التي كان ابرزها اقتحام الارض والعمـل والحراسة والانتاج .

١ ـ لقد زعمت الصهيونية أولا انها ستنهض فـي فلسطين بعبء « رسالة حضارية » تتمثل في تمدين وتحضير فلسطين . وهذه الدعوى تتطابق تماما مع الفكر العنصري الراسمـــالي الاوروبي فـــي القرن التاسع عشر الذي صاغ هذه الفكرة لكي تكون تبريرا ثقافيا « لاستعمار الشعوب المتخلفة » واستغلالها من قبل الراسمالية الاوروبيـــة تحت شعار « اعدادها » و « تمدينها » لتصبح في مستوى يسمح لهـا بأن تحكم نفسها . ويشهد على ذلك ما قرره المفكر الصهيوني موسى هس من ان رسالة الامة اليهودية ودولتها في فلسطين هي حماية « نقطـــة التقاطع والالتقاء بين القارات الثلاث » . ويصف هذه الرسالة بقوله : « وسيعيد رأسمالكم الحياة للارض القاحلة وسيحول عملكم وجهدكم ، مرة اخرى ، التربة القديمة الى وديان مثمرة بعد أن تنقلوا الارض من براثن رمال الصحراء المتنة . بعد ذلك سوف يقدم لكم العالم مـــن جديد آيات الولاء والاحترام » .

ويؤكد هرتزل على الفكرة ذاتها فيقرر :

« وسنكون هناك جزءا من الحاجز الذي يحمي اوروبا في آسيا،

سنكون مخفرا أماميا للحضارة في وجه الهمجية . يتوجب علينا كدوله محايدة ، ان نبقى على اتصال مع كل اوروبا التي سيكون عليها ضمان وجودنا » .

ويزيد مانس بوردو الفكره وضوحا ليقرر :

« سوف نبذل وسعنا لكي نعمل في الشرق الادنى ما عمله الانجليز في الهند ، أعني بذلك : النساط الثقافي وليس السيطرة . نحن ننوي انتهاب ارض فلسطين بمثابة الحمله المعمدين للمدنيه والحضر، ورسالتنا هي توسيع الحدود الاخلاقيه لاوروبا حتى تصل الى الفرات » .

وخلاصة ذلك ، أن الصهيونيه منذ بدايتها الاولى ، أسقطت من مسلمات الفكر العنصري الاوروبي لتبرير استعمارها لفلسطين ، بما يتضمنه ذلك من النظر الى « اليهود » باعتبارهم جنسا آسيوي وأرقى من العرب ، الذين صلوا في استثمار بلادهم ، وجاء اليهود بكل ما يملكون من مواهب فريدة لكي يقودوهم في مدارج الرقي والتقدم .

٢ ـ ولقد ترتب على هذه النظرة العنصريه المبدئية التي مهدت لعمليات الاستيطان الاستعماري لفلسطين وواكبها نشوء اتجاه سلبي ازاء العرب الفلسطينيين أهل البلاد يتمثل ليس فقط في عدم الاكتراث بمصيرهم ، بل في ضرورة القضاء عليهم وطردهم خارج الحدود ، لو قاوموا عمليات الاستيطان الاستعماري .

وقد اتبع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني هذه السياسة في كل مراحله ، قبل انشاء الدولة وبعدها . وتشهد على ذلك المحاولات الارهابية التي خطط لها قادة اسرائيل لطرد اكبر عدد من الفلسطينيين خارج حدودهم عام ١٩٤٨ . وهناك شواهد ثابتة على ذلك ، وبالرغم من المزاعم الاسرائيلية التي تذهب الى ان القادة العرب هم الذين حثوا الفلسطينيين على الهجرة . واستمرار زحف الاستيطان الاسرائيلي ، وخصوصا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، ظاهرة ملموسة ، يشهد العالم آثارها ، في شكل مصادرة اراضي الفلسطينيين ونسف منازلهم وطردهم من قراهم وتحريم العودة عليهم .

وهذه على وجه الدقة هي السياسات التي تتبعها نظم الاستعمار الاستيطاني العنصرية .

٣ ـ وتتمثل العنصرية ايضا في السياسات الاستيطانية التي صاغها ومارسها الصهيونيون الاوائل والتي كان أبرزها اقتحام الارض والعمل والحراسة والانتاج (٩) .

أ ـ اقتحام الارض :

استند البرنامج الصهيوني الاستيطاني على عدة مبادىء من أهمها مبدأ اقتحام الارض . ويعني ذلك على وجه التحديد الاستيلاء على ارض فلسطين واستغلالها وانقاذها من سيطرة الاغيار (غير اليهود ـ العرب) عليها . وحاولت القيادات الصهيونية أن تطبع المبدأ بطابع نفسي بالاضافة الى طابعه الاقتصادي الاستغلالي . فاقتحام الارض وغزوها يجعل اليهودي يظهر نفسه ، ويتخلى عن سلوكه الطفيلي الذي تمرس عليه في الشتات ، نتيجة الانقطاع أجيالا طويلة عن الزراعة والصناعة وممارسة الانشطة الانتاجية المختلفة . غير انه من الاهمية بمكان أن نشير الى الطابع الارهابي لعملية اقتحام الارض الفلسطينية وغزوها . فهذه العملية لم تتم عن طريق شرائها من اصحابها ، ولا حتى عن طريق السلل والخداع ، وانما تم ذلك قسرا باستخدام الهاغانا لوسائلها الارهابية في طرد الفلسطينيين من اراضيهم ، مما جعلها تنجح في أقل من عام واحد (١٩٤٨) في انتزاع مساحة قدرها ٧٦ ٪ من مجموع مساحة فلسطين .

ب ـ اقتحام العمل :

الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ليس استعمارا استيطانيا فحسب ، ولكنه أيضا استعمار احلالي ، بمعنى انه كان يطمح ـ لتحقيق حلم الدولة اليهودية النقية ـ الى احلال اليهود محل العرب الفلسطينيين . ولذلك لم يكن كافيا اقتحام الارض ، بل انه ذهب ـ الى ابعد من ذلك ـ في سبيل اقتحام العمل . ونجد هنا ايضا ان مبدأ اقتحام العمل ، الذي كان في حقيقته الوجه الاقتصادي العنصري للاستعمار الاستيطاني الصهيوني ، يهدف بغلاف ايديولوجي ، فيذهب بعض مفكريه وخصوصا المفكر الصهيوني غوردون الى ان العمل اليهودي يجب ان يعمل من اجل العمل ذاته . وان اقتحام العمل وخصوصا الزراعة والاعمال اليدويه من شأنه ان يوثق صله اليهودي بالارض والطبيعه ، هذه الصله التي حرم منها السنين الطوال ، نتيجة للوظائف الطفيليه التي اجبر على ان يمارسها في الشتات .

بعيدا عن كل هذه الافكار المجرده عن العمل العبري وطهارته وضرورته لبعث شخصية اليهودي من جديد ، فقد كشف مبدأ اقتحام العمل عن نفسه ، باعتباره مبدأ عنصريا ترتب عليه انغلاق اليهود على انفسهم من ناحيه ، وحجب العمل عن العمال العرب ، في محاولة القضاء عليهم في سوق العمل .

ج ـ اقتحام الحراسه .

يعتبر هذا المبدأ الترجمه العمليه لشعار الدفاع الذاتي في ايديولوجية الزياده أو بعبارة أخرى ايديولوجية المستعمرين الصهيونيين الاوائل . فاقتحام الارض واقتحام العمل ، معناه انتزاع الاراضي العربية من اصحابها ، واضعافهم اقتصاديا في سوق العمل تحت شعار العمل العبري ، ويعني ذلك انه احتمال تصاعد مقاومة عربية ضد السياسات اليهودية ، ومن هنا جاء هذا المبدأ ، الذي معناه عدم الاعتماد على العرب في حراسه المستوطنات أو المشاريع الصهيونيه وضرورة تشكيل فرق صهيونية للقيام بهذه الوظيفة الحيوية .

د ـ اقتحام الانتاج :

وحتى تكتمل الدورة التي تبدأ باقتحام الارض والعمل والحراسة تأتي أخيرا لمبدأ اقتحام الانتاج . ومعناه ببساطة مقاطعة المنتجات العربية ومنع التعامل مع العرب ، والتعامل مع اليهود وحدهم . وقد قام الهستدروت بدور واضح في فرض العمل العبري ، وفي فرض مبدأ شراء الانتاج اليهودي ومقاطعه الانتاج العربي .

ثانيا : العنصرية في المجتمع الاسرائيلي بعد قيام الدولة عام ١٩٤٨ :

لعبت العنصرية في المرحلة الاولى من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين دورا بارزا في بناء المجتمع اليهودي . وهذا الدور ركز في المقام الاول على تثبيت هوية المستعمرين الاوائل القادمين ودعمها ـ باستخدام شعارات شتى ـ ازاء هوية العرب الفلسطينيين. ويمكن القول ان أجيال المستوطنين الاوائل قد نجحوا في اقامة المجتمع اليهودي في فلسطين نتيجة ظروف تاريخية شتى ، لعل من اهمها تدعيم الاستعمار العالمي ممثلا في القوى الكبرى وخصوصا بريطانيا العظمى . ومساعدات الرأسمالية الاوروبية اليهودية وعدم قدرة العرب في هذه المرحلة على المقاومة الفعالة المنظمة ، فقد كانت الدول العربية جميعا تقريبا واقعة تحت السيطرة الاجنبية .

وقد ترجم نجاح هذه الجماعات الاستيطانية عن نفسه في انها

استطاعت أن تخلق مؤسسات ومنظمات متعددة اصبحت هي بذاتها فيما بعد نواة أجهزة الدولة بعد اعلانها عام ١٩٤٨ .

قامت الدولة اذن عام ١٩٤٨ . وأدى ذلك بالتالي الى اختفاء عديد من الافكار والقضايا التي كانت مثارة في مرحلة الاستيطان الاولى، ومن ناحية أخرى ظهور مشكلات من نوع جديد .

وقد ارتبط انشاء الدولة في اسرائيل بثلاث عمليات رئيسية هي :

تدفق مهاجرين جدد ، وحايز البناء الاقتصادي والاجتماعي ، وتحول صفوة « الرواد » (المستعمرين الاوائل) الى صفوة حاكمة . وقد أدت هذه العمليات الى التأثير الواضح على الهوية الايديولوجيه للمجتمع الاسرائيلي وريث المجتمع اليهودي في فلسطين . ولعل ابرز النتائج التي ظهرت هي انهيار ايديولوجية الريادة ، وذلك في غمار تحول المجتمع من مجتمع زراعي أساسا الى مجتمع صناعي ، وقد تم ذلك في ظل سيادة القطاع الخاص وهيمنته على مقدرات الاقتصاد الاسرائيلي ، وبالرغم من الدعاوى الكاذبة عن اشتراكية المجتمع الاسرائيلي .

وبغير أن نخوض في تفصيلات عملية الانهيار الايديولوجي التي صاحبت عملية التفكك الاجتماعي في المجتمع الاسرائيلي ، نشير الى ان التغيير الجوهري الذي ظهر عقب انشاء الدولة ، هو احساس القيادات الاسرائيلية بضرورة وضع استراتيجية اجتماعية لتنشئة الاجيال الجديدة من الاسرائيليين ، وذلك حتى يكيفوا مع وضعهم الجديد . فانشاء دولة اسرائيل معناه بداية ظهور تمايز بين اليهود بوجه عام ، وبين الاسرائيليين مواطني هذه الدولة الجديدة ، ومدى اتصالها او انفصالها عن الهوية اليهودية التقليدية ، وسنناقش ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد .

ولكن ما هي ملامح الاستراتيجية النفسية الاجتماعية التي وضعتها الصفوة الحاكمة الاسرائيلية لتحديد اتجاهات مطامح عملية التنشئة الاجتماعيه في المجتمع الاسرائيلي ؟

ان هذه الاستراتيجية في حد ذاتها أدت الى نشوء ما يطلق عليه عالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين « المشكلة او المعضلة الاسرائيلية » (١) . ويحدد معالمها العامة بكونها تتمثل في التناقض الذي يسم الواقع الاجتماعي والروحي في اسرائيل ، ويعني به التعارض بين « العقيدة الاسرائيلية » التي تدعو الى اقامة مجتمع ديمقراطي تقدمي ومتنور ، تسوده المساواة ـ والتي تزعم الدعاية الاسرائيلية انه قد تحقق فعلا ـ وبين قوانين الثيوقراطية ـ العنصرية والمناخ السائد الذي يتسم بالتعصب ، والثقافة المنغلقة ، بالاضافة الى الاجراءات الشمولية القهرية التي تطبقها السلطات الاسرائيلية » .

ان هذه المشكلة تعبر في الواقع عن فشل الصهيونية في تحقيق برنامجها المعلن ، والذي زعم ان انشاء دولة اسرائيل ، هو التجسيد الواقعي للحلم الصهيوني في ان يعيش اليهود لاول مرة في تاريخهم في اطار طبيعي تختفي فيه اللاسامية ، ويعيش في جنباته شعب الله المختار الذي تهدده مختلف ضروب التهديد عبر تاريخه المتصل كما يزعم المؤرخون الصهيونيون . ويضع تامارين يده على جذور المشكلة ، فيقرر ان الصراع داخل المجتمع الاسرائيلي ، يكشف عن نفسه في التناقض الجذري بين أنصار الاتجاهات التي تميل الى صياغة اسرائيل باعتبارها « غيتو » بالمعنى المادي والروحي للكلمة ، وهؤلاء الذين يجاهدون لاقامة مجتمع حر ومفتوح . هذا التعارض الجوهري ، بالاضافه الى الخلاف بين انصار التكامل مع الحضارة الانسانية المعاصرة ، او الانعزال والبعد عنها ، هو جوهر « المشكلة الاسرائيلية » . وفي راي تامارين ان حل هذه المشكلة لن يحدد فقط الملامح الاساسية الاجتماعية والحضارية للدولة ، ولكن أهم من ذلك سيكون حاسما في تحديد مستقبلها السياسي .

وخلاصة رأي تامارين ، الذي يتفق مع الواقع الى حد كبير ، ان تخطيط الصفوة الحاكمة الاسرائيلية الذي يتمثل في ان تكون اسرائيل قلعة عسكرية حصينة بالنسبة الى جيرانها العرب قد أدى الى عزل اسرائيل حضاريا ، وتحويلها الى « غيتو » كبير تسوده اتجاهات حضارية انعزالية ورجعية ، هي في حد ذاتها المناخ الصالح لنمو الافكار العنصرية ، وانتشار سياسات التمييز العنصري ضد العرب .

ويكشف عن رجعية الاستراتيجية الاجتماعيه الاسرائيلية عديد من الحقائق والظواهر اهمها :

١ ـ قطع أواصر الاتصال بين الشباب الاسرائيلي والعالم ، اللهم الا من خلال برامج التعليم المحافظة ومصادر المعلومات المحلية ، وذلك خوفا من اهتزاز القيم التي تبثها السلطات الاسرائيلية فيهم ، لو أتيحت لهم فرصة المقارنة في اطار اوسع .

وبدعوى الخوف من ذوبان الاسرائيليين في مجتمعات اخرى ، أو اعتبارات الامن التي يفرضها الموقف العسكري مع البلاد العربية ، فان الحصار الثقافي قد فرض بالفعل على الشباب الاسرائيلي ، وان كانت اعداد كبيرة قد استطاعت الافلات والسفر الى الخارج والاستقرار في الولايات المتحدة الاميركية .

وقد أدى هذا الحصار الثقافي الى سيادة مشاعر مرضية ازاء اي نقد يوجه الى الممارسة السياسية والاجتماعية في المجتمع الاسرائيلي ونمو مشاعر الشك ازاء الغرباء ، والتعصب والتطرف الايديولوجي وكذلك ظهور الفجوة الواسعة بين نصوص القوانين وتطبيقها .

وقد أدت هذه الظواهر جميعا الى أن يمارس التعصب والتمييز العنصري في المجتمع الاسرائيلي بناء على تطبيق القوانين ذاتها ، او بعبارة عالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين « اصبحت هناك أسس قانونية لممارسة التعصب والتمييز العنصري في هذا المجتمع » .

ومن الجدير بالاشارة ان هذا الطابع العنصري والتعصبي لم يقتصر اثره على السكان العرب داخل اسرائيل ، ولم يترك بصماته فقط على لطابع الاساسي للشخصية الاسرائيلية البازغة وخصوصا فيما يتعلق باتجاهاتهم ازاء العرب ، ولكنه أبعد من ذلك اخذ يترك آثاره على معاملة اليهود الشرقيين ، وايضا بالنسبة لبعض طوائف اليهود الغربيين .

والحقيقة ان مظاهر العنصرية في المجتمع الاسرائيلي متعددة بالاضافة الى ان بعض صورها لا يمكن فهمه الا بالتحليل المتعمق لعديد من الافكار والايديولوجيات والنظم الاجتماعية السائدة في المجتمع الاسرائيلي . لكل ذلك نختار فقط ـ لكي تركز البحث ـ موضوعين لمناقشتها في تأثير الاتجاه العنصري في المجتمع الاسرائيلي على اتجاهات الاسرائيليين ازاء العرب ، والاسس القانونية للتعصب والتمييز العنصري في المجتمع الاسرائيلي .

٢ ـ العنصرية واتجاهات الاسرائيليين ازاء العرب :

يمكن القول ان الطابع العنصري السائد في المجتمع الاسرائيلي قد أثر تأثيرا واضحا على اتجاهات الاسرائيليين تجاه العرب . وبالرغم من ان هذه الاتجاهات التي يمكن وصفها بانها عدوانية ، ظلت ثابتة لفترة طويلة من الزمن ، الا ان هناك شواهد على حدوث بعض التغير وخصوصا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، وازدياد فرص الاحتكاك بين عرب الضفة الغربية والاسرائيليين وأيضا بعد سياسة الجسور المفتوحة ، ولا يعني التغير هنا ان اتجاهات الاسرائيليين ازاء العرب اصبحت اقل عدوانية ، ولكنه يعني في المقام الاول ان الفرصة اتسعت امامهم للتعامل المباشر مع مجموعات من العرب تختلف الى حد ما ـ نتيجة ظروف متعددة ـ عن العرب داخل اسرائيل الذين فرضت اسرائيل

الحصار المادي عليهم من خلال تحديد اقامتهم في ظل الحكم العسكري.

غير ان أخطر الاتجاهات قاطبة ، هي تلك التي تنمي وتبلور لدى الشباب الاسرائيلي من خلال استراتيجية عنصرية للتنشئة الاجتماعية ، تستخدم في تدعيم الافكار السلبية عن العرب المدرسة والجيش ووسائل الاعلام .

وقد كشفت دراسة قام بها جورج تامارين في اسرائيل عن كل هذه الظواهر . وكان الهدف من الدراسة هو بحث آثار التعصب على الاحكام الاخلاقية من الجوانب التالية :

أ ـ وجود التعصب في ايديولوجية الشباب .

ب ـ تأثير تدريس التوراة للشباب بطريقة غير نقدية على امكانية تشكيل اتجاهات التعصب المختلفة (وخصوصا فكرة « الشعب المختار » ، وسمو الشريعة الموسويه ، ودراسة أفعال الابادة الجماعية التي مارسها الابطال التوراتيون) . وقد اختار تامارين ان يركز على اكثر صور التعصب تطرفا وهي صورة الابادة الكاملة للجماعة المعادية . واعد تامارين لذلك ١.٦٦ استمارة ذات محتوى واحد ، أجاب عليها كتابة ٥٦٣ فتى و٥٠٣ فتيات من مختلف السنوات في مختلف المدارس .

وقد تطرقت الاستمارة لسفر « يشوع بن نون » في الكتاب المقدس، الذي يدرس في المدارس الاسرائيلية في النصف الرابع حتى الثامن ، وكان السؤال كما يلي :

« انك تعرف جيدا المقتطفات التالية من « سفر يشوع » :

« هتف الشعب وضرب بالابواق . وحين سمع الشعب صوت البوق هتف هتافا عظيما فسقط السور في مكانه وصعد الشعب الى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة . وقضوا على كل من فيها بغير تفرقة بين رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف » (يشوع ، ٦ ، ٢٠) .

« وأخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها هو وكل نفس بها . لم يبق شارد ، وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا . ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل اسرائيل معه الى بنة وحارب لبنة . فدفعها الرب هي ايضا بين اسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها . لم يبق بها شارد ، وفعل بملكها كما فعل بملك اريحا » (يشوع ، ١٠ ، ٢٨ ـ ٣٠) .

« أجب من فضلك على السؤالين التاليين :

١ ـ هل تعتقد ان يشوع بن نون والاسرائيليين قد تصرفوا تصرفا صحيحا أو غير صحيح ؟

اشرح لماذا لديك مثل هذا الراي بالذات .

٢ ـ لنفترض ان الجيش الاسرائيلي احتل خلال الحرب قرية عربية ، فهل هو حسن أو سيىء أن يتصرف على هذا النحو مع سكان هذه القرية ، كما تصرف يشوع بن نون مع شعب اريحا ؟ اشرح لماذا » .

وقرر تامارين انه اختار هذا النص بالذات بالرغم من « ان ابادة الناس بالجملة التي قام بها يشوع بن نون ، ليست المثل الوحيد من هذا النوع في الكتاب المقدس . ولكنه اختاره لان « سفر يشوع بن نون » يحتل مكانا خاصا في نظام التعليم الاسرائيلي .

وقد وزعت هذه الاستمارة في مدارس تل ابيب وقرية بالقرب من الرملة وفي مدينة شارون ومستعمرة معوتشد .

وهذه امثلة من بعض الاجابات :

كتب تلميذ من مدرسة في مدينة شارون :

« كان هدف الحرب هو الاستيلاء على البلاد من اجل الاسرائيليين، ولذلك فقد تصرف الاسرائيليون تصرفا حسنا باحتلالهم المدن ، وقتلهم سكانها . وليس من المرغوب فيه ان يكون في اسرائيل عنصر غريب . ان الناس من مختلف الاديان يمكن ان يؤثروا تاثيرا لا حاجة اليه على الاسرائيليين » .

وكتبت فتاة من مستعمرة معوتشد :

« لقد تصرف يشوع بن نون تصرفا حسنا ، بقتله جميع الناس في أريحا ، ذلك لانه كان من الضروري احتلال البلاد كلها ، ولم يكن لديه وقت لاضاعته مع الاسرى » .

وكانت الاجابات من هذا النوع تشكل ما بين ٦٦ ٪ و ٩٥ ٪ حسب المدرسة والمستعمرة او المدينة .

وعلى سؤال : « هل يمكن في عصرنا تصفية جميع سكان قرية عربية محتلة ؟ » ، أجاب ٣٠ ٪ من التلاميذ بشكل قطعي : « نعم » .

ونورد فيما يلي بعض ما كتبه التلاميذ :

« أعتقد ان كل شيء قد جرى بشكل صحيح . اذ اننا نريد قهر اعدائنا وتوسيع حدودنا . ولكننا نحن ايضا قتلنا العرب ، كما فعل يشوع بن نون والاسرائيليون » ـ (تلميذ في الصف السابع) .

وكتب تلميذ من الصف الثامن :

« في رايي يجب على جيشنا في القرية العربية ان يتصرف مثل يشوع بن نون ، لان العرب هم أعداؤنا ، ولذلك فهم حتى في الاسر سيفتشون عن امكانية ليبطشوا بحراسهم » .

والحقيقة ان هذه النتائج التي تحصلت من بحث نفسي اجتماعي ميداني تتضمن في حد ذاتها كما يقرر تامارين ـ بحق ـ ادانة كامنة للنظام التعليمي الاسرائيلي ، الذي يعمل بتنسيق مع أجهزة التنشئة الاجتماعية الاسرائيلية الاخرى لزرع الاتجاهات العنصرية والتعصبية في وجدان وأذهان الشباب الاسرائيلي . وقد أحدثت نتائج هذا البحث عند نشرها ضجة كبرى في اسرائيل ، لسبب بسيط هو انها كشفت بطريقة علمية وموضوعية عن عنصرية المجتمع الاسرائيلي ، وقد دفع عالم النفس الاسرائيلي تامارين ثمن شجاعته الادبية في كشف الوجه القبيح لمجتمعه ، ففصل من عمله كأستاذ بجامعة تل ابيب ، بعد ان اشتهرت قضيته المشار اليها بـ « قضية تامارين » . وهكذا يمكن تقدير الآثار المدمرة التي ادت اليها الاستراتيجية الاجتماعية العنصرية التي تتبعها الصفوة الحاكمة الاسرائيلية .

٣ ـ الاسس القانونية للتعصب والتمييز العنصري في اسرائيل :

من الحقائق المعروفة في علم النفس الاجتماعي أن التعصب كظاهرة اجتماعية يمكن أن يوجد في عديد من المجتمعات ، كنتاج لتفاعل عمليات ونظم اجتماعية وممارسات سياسية مختلفة . غير اننا بصدد المجتمع الاسرائيلي نجابه حالة خاصة . ذلك أنه بالاضافة الى ظواهر التعصب التي يمكن ردها الى التفاعلات الاجتماعية المعقدة بين جماعات اجتماعية متعددة المذاهب والاصول والثقافات ، هنا « التعصب القنني » ان صح التعبير . ونعني بذلك ان النظام القانوني الاسرائيلي بما يتضمنه من نظريات قانونية وتشريعات ، يدعم التعصب والتمييز العنصري داخل اسرائيل ، وهو بعد ذلك ترجمة أمينة للصهيونية باعتبارها ايديولوجية عنصرية .

ويقرر جورج تامارين في دراسة له حول هذا الموضوع ، ان خطورة هذه النصوص القانونية ، تتمثل في الآثار التي تتركها في أذهان الناس ، والتي تجعلهم ، في طاعتهم لهذه النصوص ، يحترمون القيم الكامنة وراءها ، ويعتقدون في سلامتها وصحتها ، بالرغم من انها قيم رجعية وعنصرية .

والممارسات التمييزية في اسرائيل ـ بالمعنى الواسع للكلمة بما يجعلها تتضمن كل صور التسامح ـ والتي لها اسس قانونية في

اسرائيل ، تتركز في ثلاثة ميادين :

١ ـ انكار بعض حقوق الانسان الاساسية بواسطة قوانين تمييزية.

٢ ـ خرق حرية الاعتقاد بواسطة الاكراه الديني .

٣ ـ تشريعات تتضمن تمييزا عنصريا موجها ضد الاقلية العربية .

ويرى تامارين أن اخطر القوانين المضادة للديمقراطية والتي تتسم بطابع رجعي هو القانون الخاص بتنظيم المحاكم الحاخامية الصادر عام ١٩٥٣ والذي هو صوره معدله لتشريع صدر ايام الانتداب البريطاني على فلسطين . وينص هذا القانون على أن مسائل الاحوال الشخصية يحكم فيها على اساس قوانين الشريعة اليهودية .

وهذا القانون يعتبره جورج تامارين أكثر القوانين رجعيه للاسباب التالية :

أ ـ انه يخلق موقفا عنصريا عن طريق منعه للزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود ، وايضا بين بعض فئات اليهود وفئات يهودية اخرى ، وهو بالتالي يخالف مخالفه صريحه الفقره ٢ من اعلان حقوق الانسان التي أصدرته الامم المتحده . وهذا القانون ـ من وجهه النظر الاجتماعية النفسية ـ احد المصادر الرئيسية للتعصب ، ويؤثر ايضا في القسم المتعصب غير المتدين من الجمهور الاسرائيلي ، وذلك بتدعيم اتجاه الرفض ازاء الاغيار .

ب ـ انه يخلق فئة مستقلة من القضاة ، لا تحكم وفق قوانين الدولة ، وفي نفس الوقت فهو يمارس التمييز ضد المراة التي لا تكون قاضية دينية ، وأيضا يميز بين فئتين من المحامين ، الفئة التي يسمح لها بالمرافعة أمام المحاكم الدينية ، والفئة التي لا يسمح لها بذلك .

ج ـ يتسبب في التشكيك في صحة عقود الزواج والطلاق التي أبرمت خارج اسرائيل وفق القانون المدني وهو بالتالي يخرق القواعد المستقرة في القانون الدولي الخاص .

د ـ يدعم مبدأ عدم المساواة بين اليهود وغير اليهود . ذلك ان غير اليهود لا يقبلون كشهود أمام المحاكم الدينية .

هـ ـ يخرق حرية الاعتقاد وذلك باجبار الاشخاص غير المتدينين ان يتزوجوا (أو يطلقوا) من خلال ممارسة طقوس دينية تقليدية ، واحيانا يتطلب منهم الارتداد عن عقيدتهم حتى يسمح لهم بالزواج .

و ـ ينكر على المحكمة العليا الاسرائيلية حقها في صحة حالات الزواج الممنوعة وفقا للقوانين الدينية .

ويرجع تامارين صعوبة تغيير هذا القانون الذي يتضمن بداته نظرة عنصرية رجعية لكل شخص ليس يهوديا ، الى العقلية المتحجرة للجيل القديم من الصفوة السياسية الحاكمة . وهذا الجيل القديم المتشبث بمبادىء الصهيونية ما يزال يرى ان تدعيم الدين من شانه تدعيم الاواصر بين المواطنين اليهود الذين ينتمون الى المجتمع الاسرائيلي .

واذا أضفنا الى ذلك ، القوانين الجائرة التي طبقت وما زالت تطبق على العرب الفلسطينيين في اسرائيل ، ادركنا كيف يكشف المجتمع الاسرائيلي عن وجهه العنصري الصريح في التعامل مع العرب الذين كانوا يوما الاغلبية واهل البلاد الاصليين .

تحليل سياسي لتشكيل الشخصية الاسرائيلية العنصرية

أولا : السمات الاساسية للشخصية الاسرائيلية

ايديولوجية عنصرية هي الصهيونية ، قامت على اساس عدد من الاوهام والاساطير الزائفة كان لا بد لها حين تؤسس تجمعا بشريا من خلال عملية استعمار استيطاني ، ان تطبع هذا التجمع بطابعها ، عن طريق فرض ونشر وتدعيم استراتيجية عدوانية وعنصرية للتنشئة الاجتماعيه . وقد ادى ذلك كله الى ظهور الشخصية الاسرائيلية وهي متاثره بالجذور العنصريه الراسخه للصهيونية .

والحقيقه انه لا يمكن لنا أن نفهم الطابع العنصري للايديولوجيه الصهيونية بغير تعقب آثاره على مستوى المجتمع والشخصية معا . واذا كنا قد عرضنا للمجتمع الاسرائيلي من زاوية تشريح استراتيجية التنشئة الاجتماعية العدوانيه التي فرضتها الصفوة الاسرائيلية على الجماهير اليهودية في اسرائيل ، فانه من الاهمية بمكان أن نحلل اخيرا عناصر ومقومات الشخصية الاسرائيلية ، التي هي المحصلة النهائية لممارسات الايديولوجيه الصهيونية (١١) .

ان التحليل العلمي لشخصيه الجماعية في اسرائيل ، يجعلنا نقرر منذ البداية ، ان هناك هوية اسرائيلية في دور التكوين ، تختلف في سماتها ـ بدرجة قليلة أو كبيرة ـ عن الهوية اليهودية السائدة في عدد من التجمعات اليهودية في العالم الغربي . وينبغي ان نتساءل منذ البدايه عن الدلالات السياسية التي يمكن ان نعطيها للعناصر والمقومات المكونة لها ، وعن خطة الصفوة السياسية الحاكمة في الربط بين الهويه اليهوديه التقليدية والهوية الاسرائيلية البازغة .

هذه الاسئله الهامة لا نستطيع أن نجيب عليها الا اذا حاولنا ان نقوم بعملية تحليل سياسي للشخصية الاسرائيلية .

والواقع ان الدراسة العميقة للشخصية الاسرائيليه تمثل في حد ذاتها مطلبا اساسيا لفهم العدو الصهيوني فهما علميا دقيقا . غير ان تحليل تاثير مكونات هذه الشخصية على الصراع العربي الاسرائيلي من وجهه النظر السياسية والاجتماعية يعد ضرورة حيوية. ذلك ان وقوفنا عند عقبات البحث السيكولوجي الخالص ، او الدراسة الاجتماعية المحدودة ، بغير ان نبسط بصرنا الى ما يترتب على النتائج العلمية التي نحصل عليها ، من آثار اللحظة الراهنة في الصراع وتطوراته في المستقبل ، يعد نكوصا واضحا عن توظيف البحث العلمي في خدمة الاهداف القومية لامتنا العربية ، في صراعها المصيري مع الدولة الصهيونية العدوانية .

المشكلات الخاصة بتشكيل الهوية الاسرائيلية :

حاول بعض الباحثين تحديد المشكلات الخاصة بتشكيل الهوية الاسرائيلية في الوقت الراهن . أولى هذه المشكلات انتقال « السمات اليهودية » التقليدية الى « الهوية الاسرائيلية البازغة » . ويرى بعض المحللين النفسيين ان هذه السمات التي يمكن استخلاصها من تحليل التاريخ اليهودي تتعلق بنظرة اليهود الى أنفسهم باعتبارهم كانوا دائما أقلية مضطهدة ، ومن بين هذه السمات : القلق والاحساس بالدونية ، والشك ، وعدم الثقة في غير اليهود . وقد انتقلت بعض هذه السمات ـ كما يرى بعض الباحثين النفسيين الاميركيين ـ الى المجتمع الاسرائيلي . فقد لاحظوا سيادة مشاعر الشك ـ التي كان نتيجة احساسهم بتفردهم وامتيازهم من ناحية ـ وخضوعهم لغير اليهود من ناحية اخرى خلال موجات الاضطهاد التي جرفتهم ازمانا طويلة . غير ان الاحساس بالدونية تحول لكي يصبح احساسا بالعظمة والتفوق لدى الاسرائيلي تجاه باقي العالم . وهذا الاحساس بالتفوق يعبر عنه الاسرائيلي فيما يزعمه لنفسه من حقوق لها مكانة متميزة ، وتتجاوز في مداها حتى المبادىء المستقرة في القانون الدولي العام . ومثل قانون العودة الاسرائيلي الذي يمنح الجنسية الاسرائيلية فورا لكل يهودي يعلن عن رغبته في الهجرة الى اسرائيل ، ابرز مثال على ذلك .

ويقرر عالم النفس اليهودي روبنشتين في ملاحظاته الشخصية عن « النفسية الاسرائيلية » ان « الاسرائيليين كافراد وكمجتمع ، يتسمون باتجاهات شك عميق الجذور تجاه الآخرين . وهذا الشك في رايه يسود العلاقات الشخصية في اسرائيل ، ويكشف عن نفسه في

كل تفاعل مع العالم الخارجي . وهو يصف ثلاثة مستويات من الشك والرفض : المستوى الاول موجه ضد العرب ، والمستوى الثاني موجه ضد العالم غير اليهودي ، والمستوى الثالث موجه ضد المنظمات الدولية .

ويخلص روبنشتين من دراسته الى انه يمكن وصف النفسية الاسرائيلية على مستوى وجود « النمط لجنون الاضطهاد » بانها تتسم بالتبلور والتحدد بهيمن عليها ، ويسمد هذا النمرض المرضي جذوره من شك اليهود التقليدي في الاغيار (كل من هم ليسوا يهودا) ، والذي تسرب الى التكوين النفسي للاسرائيليين المعاصرين ، الذي يتوجه اساسا للعربي مما انعكس بشكل واضح على السياسات الاسرائيلية في النظرية والتطبيق .

ولعل العامل الحاسم في العلاقات بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع الاسرائيلي مرتبط ارتباطا وثيقا بمشكلة الهوية . وفي هذا الصدد يقارن الباحثون بين « الهوية اليهودية التقليدية » و « الهوية الاسرائيلية البازغة » . ووفقا لما تراه العالمة الاميركية مارغريت مين في كتابها « اسرائيل ومستقبل الهوية » ان العامل الذي كان ضروريا دائما للحفاظ على الهوية اليهودية هو وجود جماعة او جماعات من غير اليهود . « فالشيء الوحيد الذي كان ضروريا لتمييز جماعة من اليهود هو وجود بعض الاغيار » . وقد وجدت مارغريت مين بين ملاحظاتها في المجتمع الاسرائيلي « انشغال الاسرائيليين الشديد بحس منفصل متعلق بالهوية ، وبالرسالة المنفردة لاسرائيل ، وبوضع شعب اسرائيل الذي يختلف عن اي شعب آخر » . وكل هذا يتطابق مع السمات التي اشرنا اليها في مقدمة هذا المبحث ، للمذاهب والايديولوجيات العنصرية .

وتتفق احدث البحوث النفسية الاجتماعية التي اجراها العالم اليهودي « هرمان » (١٢) عن الهوية الاسرائيلية عام ١٩٧١ مع النتائج التي توصلت لها مارغريت مين في الخمسينات . فهو يقرر ان تقسيم العالم بين اليهود وغير اليهود ، مكون اساسي من مكونات الهوية اليهودية ، وان صورة غير اليهودي تحتل وضعا مركزيا في ذهن اليهودي ، وما زال وضع الحدود بين اليهود وعالم غير اليهود له تاثير قوي غلاب في اسرائيل .

غير انه في الحديث عن الهوية الاسرائيلية البازغة ، ينبغي الالتفات الى تعدد التكوينات النفسية في اسرائيل ، بحسب الاجيال المختلفة التي ينتمي اليها الاسرائيليون . ولعل جيل السابرا (وهم المواليد الذين ولدوا في اسرائيل) هو الذي يركز الباحثون على محاولة استكشاف معالم بنائه النفسي المميز . ومرد ذلك الاهتمام الى الاختلاف النوعي في الخبرة الاجتماعية النفسية لليهود المهاجرين الى اسرائيل ، وهؤلاء الذين ولدوا على ارضها ولا يعرفون بلدا غيرها . هذا الجيل يتسم ـ من وجهة نظر عديد من الباحثين ـ بسمات نفسية منفردة اهمها :

ـ التمركز حول اسرائيل (بالمعنى الزماني والمكاني للكلمة) .

ـ عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودي الحديث (حتى ما يتعلق منه بتاريخ آبائهم) .

ـ طموحهم يتركز حول بلوغ مستوى الامان المادي ، وتحقيق مستوى مريح من الحياة .

ـ احساس قوي بالانتماء .

واذا كان اختلاف الاجيال يعكس اثره بوضوح على بناء الهوية الاسرائيلية البازغة ، فان هناك في رأي هرمان ابعادا لها دلالة هامة في قياس العوامل التي تشكل هذه الهوية في الوقت الراهن . ولعل اهم هذه الابعاد قاطبة : الاصل السلالي (يهود شرقيون ويهود غربيون) ، ودرجة التدين (يهود علمانيون ويهود متدينون) .

ولعل السؤال الرئيسي الذي ينبغي اثارته هو : ما تاثير الهوية الاسرائيلية البازغة بملامحها وقسماتها التي حاولنا تحديدها على تطورات الصراع العربي الاسرائيلي ، ومن ناحية اخرى ما تاثير الصراع عليها ؟

ان اهم ما ينبغي الاشارة اليه ، ان الصفوة الحاكمة الاسرائيلية تحاول ـ من خلال استراتيجية نفسية اجتماعية متماسكة ـ تشكيل الهوية الاسرائيلية البازغة ، وفق نموذج يسمح في النهاية لها بتحقيق سياستها العسكرية والاقتصادية باكبر قدر من المرونة والفاعلية. ومن هنا يمكن القول ان السمات النفسية التي تميز جماهير الاسرائيليين كالشك والرفض والعدوان ازاء العرب ، واراء العالم غير اليهودي ، واخيرا ازاء الهجرة والمنظمات الدولية ، ليس متوقعا ان تميز ايضا اعضاء الصفوة الحاكمة الاسرائيلية بنفس الطريقة التي نجدها لدى الجماهير التي سيشكل وعيها السياسي والاجتماعي وفقا لمخططات الصفوة السياسية . فمن المتفق عليه في بحوث علم النفس الاجتماعي انه حتى لو سلمنا بان هناك طابعا قوميا يميز شعبا من الشعوب ، فمن المحتمل ألا نجد السمات النفسية الاجتماعية التي يضمنها لدى الصفوة او القادة . وحتى اذا ما ظهرت سمات الطابع القومي للشخصية بالنسبة للصفوة السياسية ، فان ادراكهم عالبا ما تتاثر بالحقائق الصلبة المتعلقة بحجم القوة التي تحت تصرفهم وبحدود الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد .

الدلالات السياسية لمحاكمة ايخمان :

وتكشف عن هذه الملاحظة الهامة محاكمة ايخمان في اسرائيل ، التي تبين بشكل بارز الفجوة بين الاستراتيجية التي صاغتها الصفوة الاسرائيلية لتشكيل الهوية الاسرائيلية ، والتي تركز تركيزا شديدا على ربطها بالهوية اليهودية ، وخصوصا فيما يتعلق بالشك في غير اليهود ، وبين الواقع النفسي لدى الاسرائيليين ، الذين نتيجة لظروف متعددة ـ لم يعودوا يهتمون بعمق الروابط بينهم وبين يهود العالم .

تقرر الباحثة اليهودية الشهيرة حنا آرندت في كتابها الذي اثار سخط الصفوة الحاكمة الاسرائيلية « ايخمان في القدس » ، ان هذه الصفوة لم يكن هدفها محاكمة ايخمان باعتباره شخصا ولكن باعتباره رمزا . ويكشف عن ذلك تصريح لبن غوريون قبل المحاكمة قرر فيه : « ليس فردا ذلك الذي وقع في القفص لكي يجابه محاكمة التاريخية ، ولا هو ايضا النظام النازي بمفرده ، ولكنه ايديولوجية المعادة للسامية عبر التاريخ » .

وكانت الدوافع الكامنة وراء محاكمة ايخمان لدى الصفوة الاسرائيلية متعددة . وهي كما يحصرها دابيل في مقاله « ابجديات العدالة » الذي ينقد فيه كتاب آرندت :

١ ـ لكي يشهد العالم على النصير الذي لاقاه اليهود .

٢ ـ ولتحميل ضمير الامم وزر الاحساس بالذنب حتى تندفع للدفاع عن مصالح اسرائيل .

٣ ـ ولكي يثبوا لليهود في اسرائيل نوعية الحياة التي عاشها اليهود في الشتات ، والتي ادى اليها انهم عاشوا كاقلية .

٤ ـ ولكي يبرهنوا للاسرائيليين اخيرا صواب الحل الصهيوني لمشكلة اليهود .

وتكشف حنا آرندت في كتابها عن ان بن غوريون صمم خطة المحاكمة لكل مراحلها قبل ان تبدا ، وكشف عن اهدافه التي يريد ان يحققها من ورائها في سلسلة مقالات نشرها في جريدة « دافار » ومن بينها « ان جيل الاسرائيليين المعاصرين في خطر ان يفقدوا روابطهم مع الشعب اليهودي ، وبالتالي مع تاريخهم ، ولذلك فمن الضروري لهم ان يذكروا ماذا حدث للشعب اليهودي » .

وهكذا يمكننا ان نرى ـ من خلال تخطيط الصفوة السياسية الاسرائيلية لمحاكمة ايخمان ـ كيف تعمل هذه الصفوة بدأب لتشكيل الشخصية الاسرائيلية بناء على نموذج عنصري محدد ينهض أساسا على الشك في غير اليهود عموما ورفضهم ، والعداء ازاء العرب خصوصا ، وكل ذلك انطلاقا من المقولة العنصرية الاساسية التي تزعم ان اليهود هم شعب الله المختار ، ولذلك هم أسمى الاجناس قاطبة .

ثانيا : المكونات العنصرية في الشخصية الاسرائيلية :

اذا كنا قد أكدنا أن الصفوة السياسية الاسرائيلية قد وضعت استراتيجية للتنشئة الاجتماعية للاسرائيليين نسجت خيوطها من مسلمات الايديولوجية الصهيونية العنصرية ، فانه يبقى أمامنا حتى ندعم هذا الحكم ، أن نستشهد بالبحوث النفسية الاجتماعية الميدانية الاسرائيلية ذاتها لكي نرى كيف نجحت هذه الاستراتيجية الرجعية في بلورة عدد من الاتجاهات الاساسية المصبوغة بالعنصرية بشكل صريح أو ضمني في الشخصية الاسرائيلية .

وتكشف عن ذلك بوضوح كامل سلسلة الابحاث الميدانية التي قام بها عالم النفس الاسرائيلي سيمون هيرمان ، والتي نشرها في كتابه « الاسرائيليون واليهود » . وترد أهمية هذه الدراسات الى انها اعتمدت على بحث عينات قومية ممثلة بطلبة المدارس الثانوية في اسرائيل الذين يقعون في فئة العمر ١٦ ـ ١٧ سنة ، وامتدت في بعض جوانبها لتشمل طلبة الجامعات في السنوات الاولى . وقد قام هيرمان بدراسته الرئيسية عام ١٩٦٥ واستكملها بدراسات أخرى عام ١٩٦٨ .

وفي دراسته التكميلية التي قام بها عام ١٩٦٨ ، درس هيرمان عينة من طلبة المدارس الثانوية في القدس وحيفا ، وطبق عليهم استمارة بحث يحتوي على عدد من الاسئلة . وقد صنف هيرمان عينته الى ثلاث فئات : متدينون ، ويعني بهم من يحرصون على اداء الشعائر الدينية بانتظام ، وتقليديون ، ويعني بهم من يحترمون التقاليد الدينية اليهودية ، غير انهم لا يواظبون على اداء الشعائر الدينية ، وغير متدينين ، ويعني بهم من لا يمارسون الشعائر الدينية .

وتكشف نوعية الاسئلة عن الاطار النظري الذي ينطلق منه هيرمان في دراسته للهوية الاسرائيلية ، وهذا الاطار يتضمن في الواقع المقولات العنصرية الاساسية الكامنة في الصهيونية ، اذ نجد أمامنا ثلاثة عشر سؤالا تتناول الموضوعات الآتية :

ـ الاسرائيليون باعتبارهم استمرارا للشعب اليهودي .

ـ دولة اسرائيل باعتبارها استمرارا للتاريخ اليهودي .

ـ السمات السلبية للسلوك اليهودي اثناء المذابح التي جرت لليهود في المانيا (الهولوكوست) .

ـ الجوانب الايجابية للسلوك اليهودي اثناء المذابح التي جرت لليهود .

ـ التعاطف مع معاناة اليهود اثناء المذابح .

ـ التعاطف مع اليهود الذين عانوا من الاضطهاد فيهم في البلاد الاسلامية .

ـ امكانية تكرار المذابح لليهود .

ـ واجب اليهود في أن ينظروا الى أنفسهم باعتبارهم من بقوا احياء من المذابح اليهودية .

ـ تعريف الصهيونية مجردا .

ـ نظرتهم الى انفسهم باعتبارهم صهيونيين .

ـ مدى شعورهم بالقرب من اليهود الاميركيين الذين يرغبون والذين لا يرغبون في الهجرة الى اسرائيل .

ـ امكانية اقتلاع اتجاهات معاداة السامية .

ـ معاداة السامية وسمات وسلوك اليهود .

واذا حاولنا ان ننظر لنتائج هذا البحث نظرة كلية شاملة ، فاننا نستطيع ان نضع ايدينا على المكونات العنصرية الاساسية للصهيونية . ويمكن تحديد هذه المكونات في عدد من الافكار الرئيسية :

١ ـ التأكيد على استمرارية الشعب اليهودي عبر التاريخ وبفرده .

٢ ـ التركيز على الاضطهاد الذي لاقاه اليهود في المجتمعات الغربية .

٣ ـ التركيز على الاعتداءات المزعومة التي وقعت على اليهود في البلاد الاسلامية .

٤ ـ اثارة الخوف الدائم من احتمال تكرار المذابح اليهودية .

٥ ـ تأكيد استمرارية معاداة السامية في العالم .

ان هذه الافكار الرئيسية هي التي نجحت الصفوة الحاكمة الاسرائيلية في زرعها في أذهان الاسرائيليين ، مما أدى بهم الى ان تتشكل اتجاهاتهم الاساسية بشكل مرضي ، ويبدو ذلك كما ذكرنا في بداية هذا الفصل ، في الشك والرفض والعدوان ازاء العرب ، وازاء العالم غير اليهودي ، وأخيرا ازاء الاجهزة والمنظمات الدولية .

لقد أدت استراتيجية التنشئة الاجتماعية الاسرائيلية الى ان تصطبغ الشخصية الاسرائيلية بطابع تسلطي واضح ، كما يؤكد عالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين ، وقد ساعد على صياغة هذه الشخصية العنصرية بتعميم القيم التي تشجع على العنف والعدوان ازاء العرب سواء بالتنشئة للفلسطينيين الذين ظلوا داخل حدود اسرائيل بعد عام ١٩٤٨ ، أو بالنسبة للبلاد العربية المحيطة باسرائيل ، وتكشف عن ذلك كله سياسة الردع التي صاغ مبادئها بن غوريون في الخمسينات، والتي انطلقت من مسلمة عنصرية قاطعة مؤداها ان العرب لا يعرفون الا لغة القوة والعنف . ولا نحتاج الى كبير عناء ، لنكشف ان هذا الحكم ، هو نفسه الذي تردده كافة الانظمة العنصرية حين تقيم تفرقة حاسمة بين العنصر النقي المتمثل في المستعمرين أيا كان جنسهم ، وبين العنصر المنحط المتمثل في اهالي البلاد الاصليين . وهذه التفرقة العنصرية هي التي تقف مبررا لممارسة العنف والارهاب ازاء اصحاب البلاد الاصليين . تم ذلك تاريخيا في الجزائر ، وما زال يمارس في جنوب افريقيا وفي اسرائيل التي زرعها الاستعمار في قلب العالم العربي .

خاتمة :

في ضوء بحثنا ألوجيز عن الصهيونية باعتبارها ايديولوجية عنصرية ، يمكن القول ان الطابع العنصري الذي وسم الصهيونية منذ ظهورها في القرن التاسع عشر ، قد أدى ـ بعد انشاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ـ الى ظهور مجتمع عنصري بكل ما تعنيه الكلمة من معنى . ولذلك كان ظهور كتاب العالم الاسرائيلي اسرائيل شاحاك رئيس لجنة حقوق الانسان الاسرائيلية وعنوانه « عنصرية دولة اسرائيل » صدمة لكثير من الدوائر الثقافية الغربية التي خدعت طويلا بدعاوى الاشتراكية والديمقراطية ومجتمع المساواة في اسرائيل . كما ان بحوث عالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين والتي نشرها في كتابه « المفضلة الاسرائيلية » والتي تسببت في فصله من عمله كأستاذ في جامعة تل ابيب ، وكلها بحوث ميدانية ، لتثبت بما لا يدع مجالا للشك كيف أدت مسلمات الصهيونية العنصرية ، وسياساتها التطبيقية ، الى صياغة شخصية اسرائيلية تتسم بكونها عدوانية وتسلطية ومتعصبة ومنغلقة .

ومن الجدير بالاهتمام ان هذه السمات يشترك فيها الى حد كبير عديد من نظم الاستعمار الاستيطاني التي ما زالت باقية في عالمنا حتى الوقت الراهن . ومن هنا تكتسب الدراسات المقارنة لهذه النظم

أهمية خاصة ، نظرا لانها جديرة بكشف البنية الاساسية لهذه النظم من ناحية ، وتبرز مكونات العقلية الاستيطانية من ناحية اخرى (١٣) . ان نتائج هذه الدراسات العلمية المقارنة ، يمكن ان تكون ذات قيمة بالغة لصانعي السياسة في البلاد التي تقاوم هذه النظم الاستعمارية ، فعلى ضوئها يمكن رسم الاستراتيجية الثورية لمجابهتها ، مهما ظنت هذه النظم انها قادرة على البقاء الى الابد . ومن خلال هذه الاستراتيجية يمكن القضاء ـ ولو في الاجل الطويل ـ على هذه الاوهام الاستعمارية من خلال العمل الفكري والنضال السياسي والعسكري .

السيد يسين

مدير مركز الدراسات السياسية والستراتيجية

مؤسسة الاهرام ـ القاهرة

الهـــوامش والتعليقـــات

(١) سبق لنا ان قمنا بدراسة تأصيلية واسعة المدى لهـذه الظـاهرة :

انظر : السيد يسين ، د. علي الدين هلال وآخرين ، الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، القاهرة : معهد الدراســـات والبحوث العربية ، ١٩٧٥ .

(٢) راجع مناقشة تفصيلية للموضـــــوع في دراستنا : الايديولوجية والتكنولوجيا ، ١ ـ تعريفات مبدئية ووضع المشكـلة ، مجلة الكاتب ، اغسطس ١٩٦٩ ، العدد ١٠١ ، ٧ ـ ٢٠ .

(٣)

- Schaff , A , La définition fonctionnelle de L'déologie et le probleme de « la fin du siecle de l'idéologie » l'homme et le societé , no ,4 . 1967 .

(٤)

- Felman , D . , in : Joseph S . Roucek . (ed) , Twentieth Century Political Thcught , New York : Philosophical library : 1946 , 105 - 131

Cox , O . C . Caste , Class & Race , New York : Monthly Review press , 1959 .

(٥) عبارة لادولف هتلر في كتاب : « كفاحي » ، مذكور في فيلمان ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

(٦) مذكور في فيلمان ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

(٧)

Gobineau ,D. Essai sur l'inégalité des races humaines Paris , Libraire de Paris , (sans date)

(٨) انظر عرضا دقيقا وتحليلا نقديا لهـــــذه النظريات العنصرية في :

Sorokin , T.A. Contemporary Sociological Theories , Harper Torchbooks , 1964 , 219 - 251 .

(٩) راجع في تعريف هذه المفاهيم : موسوعـــة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، رؤية نقدية ، تاليف واشراف : د. عبدالوهاب المسيري بالاشتراك مع سوسن حسين ، القاهرة ، مركز الدراسـات السياسية والاستراتيجية ، ١٩٧٥ .

(١٠)

- Tamarin , G . , The Israeli Dilemma : Essays on a warfare State , Rotterdam University Fress ,1973 .

(١١)

- Taylor , A.R . The Zionist Mind , Beirut , The Institute for Palestine Studies , 1974 .

انظر : السيد يسين ، قراءة سياسيه في خريطه الشخصيـــــه الاسرائيلية ، الاهرام .

(١٢)

- Herman , S N . Israelis and Jews , New York : Random House , 1970 .

(١٣)

- Abu - Lughod & Abu - Laban , B . (Ed), Settler Regimes in Africa and the Arab world , The Illusion of Endurance , Illinios , The Medina U . N . Press , 6974 .

د. أسعد عبد الرحمن

عودة العرب اليهود : المسأله والحل

قدمت حركة المقاومة الفلسطينية ، في منتصف العام ١٩٧٥ ، مذكرة الى الملوك والرؤساء العرب اقترحت عليهم فيها تبني خطة متكاملة لتنظيم الهجره اليهودية المعاكسه من اسرائيل . وقد انطلقت الخطة من فرضية مؤداها ان اليهود الذين اقاموا في البلاد العربية تعرضوا لمؤامرة صهيونية تضمنت الترغيب والتهديد لحثهم على الهجرة الى فلسطين . وقد تواكب ذلك « مع قصر نظر لدى الانظمة العربيه مما حمل هؤلاء اليهود على الهجرة الى اسرائيل .. (حيث) وقعوا بين نارين : فقد خضعوا اولا لتمييز عنصري داخل اسرائيل ، وقلقوا ، ثانيا ، الامل بالعثور على ملجأ آخر لهم » (١) . ولذلك جاء اقتراح المقاومة الفلسطينية داعيا الدول العربية الى اعادة « الثقة الى نفوس اليهود العرب في اسرائيل ، وتنظيم حملة لاعادة تهجيرهم من اسرائيل واعادتهم الى الدول العربية التي نزحوا منها » (٢) .

ومنذئذ ، أصبحت المسألة مطروحة عمليا وواقعيا ، اذ بادرت بعض الحكومات العربية (وبالذات المغرب والسودان) الى تبني اقتراح المقاومة ودعوة اليهود العرب الى العودة ، في حين عكفت حكومات اخرى على دراسة الموضوع جديا تمهيدا لاتخاذ الاجراءات اللازمة (٣) . كما ان واحدا من قادة المقاومة ، على الاقل ، قام بجهود مكثفة تمثلت في وضع دراسة لبدء الحوار حول شعار اعادة العرب اليهود الى مواطنهم الاصلية (٤) . كما تلا ذلك عقد ندوات خاصة وعامة (٥) ، وتشكيل لجان متابعة (٦) هدفها اغناء الحوار واتخاذ خطوات عملية لترجمة الشعار ، ولو جزئيا ، وربط عربة « اعادة اليهود العرب » بقطار النضال الفلسطيني والعربي المتجه نحو ازالة الكيان السياسي الصهيوني من الاراضي العربية المحتلة . واخيرا ، قامت صحيفة واحدة ، على الاقل ، بفتح المجال امام حوار علني على صفحاتها ، شارك فيه عدد من المفكرين والكتاب العرب طوال اكثر من شهر كامل (٧) .

ولقد كان طبيعيا ان يحتدم النقاش وينقسم المتحاورون ، من حيث الشكل ، بين مؤيد متحمس او متحفظ ومعارض رافض بشدة او باعتدال لفكرة « اعادة اليهود العرب » (٨) . كذلك ، انقسم المتحاورون ، من حيث المضمون ، الى مجموعتين : واحدة تقبل بالفكرة لاعتبارات مبدئية و / او عملية ، ومجموعة اخرى ترفض الفكرة ذاتها اما لاسباب مبدئية و / او عملية ، وعلى الرغم من ان النقاش عانى ، بحكم احتدامه ، من الامراض المعتادة في كل حوار ساخن ، فانه ـ بالتأكيد ـ اسهم الى حد بعيد في تسليط الضوء على الفكرة وازالة كثير من الظلال التي احاطت بها وحجبت بعض جوانبها . وكي لا يكون كل ذلك الجهد الذي بذله الجميع لاثراء الحوار طفرة سرعان ما تبخرت ، ومن اجل دفع الحوار خطوة جديدة الى الامام ، لا بد من محاولة جديدة لتسجيل الحقائق بعد ان زال عنها الضباب الذي نشأ في الاصل من ملامسة الجزء العاطفي من النقاش للوقائع الباردة . فما هي أولا مسوغات قبول الفكرة الداعية الى عودة اليهود العرب الى بلدانهم السابقة ، وما هي ثانيا أبرز الذرائع التي أتى بها كل من عارض الفكرة ، وما هي ثالثا قيمة تلك الذرائع ، وما هو رابعا وأخيرا الاطار السليم لبدء ترجمة ذلك الشعار الترجمة العملية المطلوبة .

أ ـ مسوّغات القبول :

لا يخفى على أحد أن الهجرة اليهودية الى اسرائيل هي على رأس قائمة الاولويات الاسرائيلية والصهيونية . بل ان الصهيونية ليست ، في جوهرها ، الا هجرة اليهود الى فلسطين لاقامة وطن قومي لهم دون ان تقيد حركتهم في ذلك الاتجاه حدود معلنة (٩) . كما ان الهجرة اليهودية الى فلسطين تشكل بالنسبة لاسرائيل ـ علاوة على كونها الفكرة المركزية في الايديولوجية الصهيونية ـ المصدر الافضل لتأمين الامان المعنوي لليهود والامن الفعلي المادي لاسرائيل . وهذا يفسر تشجيع اسرائيل يهود العالم على الهجرة بدءا بما اعلنته في « وثيقة الاستقلال » في العام ١٩٤٨ ، ومرورا « بقانون العودة » للعام ١٩٥٢ ، وانتهاء « بقانون الجنسية » للعام ١٩٥٢ وما تلاه من انظمة واجراءات في الاعوام التالية (١١) . كما ان ذلك يفسر الاجماع على موضوع الهجرة من قبل جميع الاحزاب الاسرائيلية بما في ذلك حركة « سيج » (اليسار الاسرائيلي الجديد) ، والفهود السود ، وحتى منظمتي ماتزين وراكاح المناوئتين للصهيونية (١٢) .

وعلى الرغم من عدم نجاح الحركة الصهيونية واسرائيل في جهود تجميع يهود العالم ، فقد ازداد عدد سكان « اسرائيل » اليهود من ٦٥٠ الفا في العام ١٩٤٨ الى ما تجاوز مليونين ونصفا من اصل ما يقارب ١٦ مليونا من اليهود في العالم (١٣) . وغني عن الذكر ان تلك الزيادة اضافت الكثير الى قوة الدولة الصهيونية التي لم تكن ، مع ذلك ، خلوا من المشاكل الاساسية . ولعل أبرز هذه المشاكل : انقسام المجتمع عموديا بين طائفتي الاشكنازيم والسفارديم ، وما رافق ذلك من توترات وازمات مجتمعية (عنصرية ، وطبقية ، وثقافية ، وسياسية) ، وتغير سمة التكوين البشري الطائفي الاسرائيلي من مجتمع « غربي » عرفيا الى مجتمع « شرقي » ، اذ انخفضت نسبة الاشكنازيم من ٩٠ ٪ في العام ١٩٤٨ الى اقل من ٤٠ ٪ الان (١٤) . بل ان الاهم من ذلك كله، نشوء ما يمكن تسميته « بتحدي الهجرة » (١٥) امام اسرائيل وبخاصة في ظل تحول محصلة الهجرة الى الحدود السلبية وتغلب ارقام الهجرة المعاكسة من اسرائيل على ارقام الهجرة اليها مع العام ١٩٧٥ (١٦) .

وكي لا تكون « مؤشرات ١٩٧٥ » هذه مسألة عابرة (كما كان عليه

الحال في مؤشرات ١٩٥٣) ، ومن أجل ان يستديم تحدي الهجرة في وجه اسرائيل ، وفي سبيل تفسيخ المجتمع الصهيوني الاسرائيلي تكتيكيا واستراتيجيا وصولا الى تحقيق الاهداف الفلسطينية والعربية الخاصة باقامة الدولة العلمانية الفلسطينيه تمهيدا لقيام الدولة العربيه العلمانيه الديمقراطية في جميع أرجاء الوطن العربي ، لا بد من تبني مشروع دعوة اليهود العرب للعودة الى أوطانهم الاصلية كحلقة من سلسله المشاريع القتالية العسكرية والسياسية والاقتصادية التي يقتضيها تحرير العرب لارضهم وتحقيق أهدافهم الاستراتيجية الاخرى.

ب ـ ذرائع الرفض (١٨) :

أما أبرز الذرائع التي يطرحها معارضو مشروع دعوة العرب اليهود للعودة الى بلدانهم الاصلية فتتلخص بالآتية :

١ ـ تنطوي الدعوة على سحب البساط من تحت أقدام المشروع الفلسطيني الهادف الى اقامة الدولة الديمقراطية العلمانيه في فلسطين . ذلك أنه اما ان نلتزم بذلك المشروع فنبقي اليهود حيث هم لكي تتشكل منهم الدولة الديمقراطية العلمانية العتيدة ، أو نسحبهم من هناك فينتفي بذلك الاساس البشري اللازم لاقامة مثل تلك الدولة.

٢ ـ سيؤدي تنفيذ فكرة عودة اليهود العرب الى تفريغ فلسطين المحتلة من اليهود الشرقيين ، مخففا بذلك من حدة أزمة التناقض بينهم وبين اليهود الغربيين من جهه ، ومفسحا المجال أمام استجلاب موجات هجرة جديدة من هؤلاء الاخيرين من جهة ثانية .

٣ ـ سيكون الاتيان باليهود العرب الى الدول العربية كمن جاء « بالدب الى كرمه » . ذلك ان أحضار يهود تشبعوا بالفكر الصهيوني طوال اكثر من ربع قرن ، سيجعل منهم طوابير خامسه وعملاء وجواسيس جاهزين للعمل لصالح اسرائيل وبخاصة وانهم ـ يضيف البعض ـ سيكونون عرضة في البلاد العربية للتمييز القومي والديني ضدهم . ناهيك عن انهم سيبتلعون ، بما عرف عنهم من حذاقة في اعمال التجارة ، اقتصاد البلدان العربية التي يفدون اليها وسيشربون النفط العربي حتى آخر قطرة .

٤ ـ ستقتصر عودة اليهود ـ ان عادوا ـ على الكبار في السن الذين لا يزالون يحملون معهم ارتباطهم بالاوطان التي نشأوا فيها . وعندئذ نكون قد خففنا عن اسرائيل عبئهم أولا ، وارهقنا انفسنا بهم ثانيا ، دون ان نفرغ اسرائيل من عنصرها البشري الذي تحشده لقتالنا ثالثا .

٥ ـ اليهود ـ في الدين والتاريخ ـ أشرار بطبيعتهم ، ولذلك سيكونون دوما أدوات خراب و / أو افساد . فلم نأتي بالطاعون الى عقر دارنا ؟

٦ ـ المسالة غير مطروحة فعليا وعمليا .

جـ ـ قيمة الذرائع :

تنطوي الذرائع المساقة أعلاه على ثغرتين اساسيتين :

فبعضها ، أولا ، ذاتي الى درجة السفم . وما كان ليصير فكرة ما أن تكون ذاتية طالما ان ذلك ينطبق على الواقع الموضوعي او ـ على الاقل ـ لا يجانبه كثيرا . وقد نتج عن المنحى الذاتي المفرط الذي يتبدى في كثير من الذرائع المعطاة اعلاه ، عدة نواقص . فالذاتية تلك ، دفعت البعض الى خلق « حقائقهم » على حساب الحقائق القائمة و / أو تلوين تفسيراتهم للحقائق بالوانهم الشخصية الذاتية . كذلك ، قادتهم ذاتيتهم ـ في حالات أخرى ـ الى لوي أذرع الحقائق و / أو جعلها مطلقة تنطبق على كل زمان ومكان .

فالبعض بذاتيته الشوفينية او الفاشية ، او ربما بكلتيهما ، قرر ـ هكذا ـ بأن اليهود بطبيعتهم أدوات شر وافساد وانهم جبلوا على الخداع واللؤم .. وما الى ذلك من نعوت تدين صاحبها اكثر مما تسعفه . وغني عن الذكر ، في هذا المجال ، ان مثل هذه « الحجة » لا تستند الى أي أساس علمي . ذلك انه ـ علميا وتاريخيا ـ ليس هناك من شعب منفوق أو مختار (بالمعنى النازي أو بالمعنى الذي ينادي به كانوليك الكهان اليهود او الصهاينة) ، تماما مثلما ليس هناك شعب جبان أو لئيم أو ما الى هنالك من صفات . ولنذكر في هذا الصدد ما روجه الاستعمار الفرنسي من الطبائع المخزية التي أراد حينذاك الصاقها عشوائيا بالشعب الفيتنامي ، وكيف ان الحقائق عادت فأكدت نفسها وقامت بدفن الاصباغات الذاتية الفرنسية . وكذلك الحال مع الشعوب الصينية ، والكوبية ، والعربية ، وغيرها من الشعوب التي تعرضت ـ حديثا بالمقياس التاريخي ـ الى فيض من مغالطات لم تنم الا في خلايا العقول الفاشية .

ولعل الاخطر من هذا كله ، كون البعض قد قام ـ هكذا ـ بتعيين نفسه فقيها في الدين الاسلامي وضليعا بتفاسيره ، فاجتزأ من الآيات ما حلا له ، ناسيا (أو على الارجح متناسيا) ان اليهود من أهل الكتاب وان ما كان من أمر بعضهم ، في مكان وزمان معينين ، لا ينطبق عليهم جميعا وفي كل الاماكن والازمان .

كما أن افراد البعض بانماض عينيه عن الحقائق القائمة والتقرير ـ هكذا ـ بأن المسالة غير مطروحة عمليا وعمليا ، أمر فيه الكثير من الذاتية . ذلك ان المسالة مطروحة فلسطينيا من خلال ما عرضناه في مقدمة هذه الدراسة . وهي ، كذلك ، مطروحة عربيا بدليل ان بعض الدول العربية (وبالذات العراق ، والسودان ، والمغرب ، وتونس) أعلنت قرار ترحيبها بعودة اليهود العرب ، وسنت قوانين خاصة بهدف تشجيع عودتهم . كما ان المسالة مطروحة اسرائيليا من خلال ما ترويه الارقام من ازدياد في حجم الهجرة المعاكسة ومن خلال ما أعلنته المصادر الاسرائيلية (وبالذات مصادر الفهود السود) مؤخرا عن بدء عودة يهود المغرب الى وطنهم الاصلي (١٩) .

واخيرا ، يطالعنا من ثغرة الادعاء و « الحقائق » الذاتية المشار اليها أعلاه ادعاء يقول بانه لن يغادر اسرائيل الا كبار السن و / أو ان من يغادرها هو بالضرورة متشبع بالافكار الصهيونية . وفيما يتعلق بالشق الاول من الادعاء ، لا يجد المرء أي أساس علمي يدعمه . بل ان حديث الوقائع ينسف ذلك الادعاء من أساسه (٢٠) . وفيما يتعلق بأولئك الذين يسوقون « حجة » التشبع بالافكار الصهيونية، لا يعرفون ـ فيما يبدو ـ معنى الصهيونيه التي هي ـ او قبل كل شيء ـ العودة و / أو السعي من أجل دعم عودة اليهود الى صهيون . ثم ان من عاش في اسرائيل وغادرها فرقا لا يتوقع له ان يكون داعية للفكر والعمل الصهيونيين أو مؤمنا بهما .

أما الثغرة الاساسية الثانية التي تنطوي عليها الذرائع المقدمة من رافضي فكرة عودة اليهود العرب الى أوطانهم ، فتكمن في خلطهم بين سلامة المبدأ وصعوبة التطبيق . فرفض فكرة ما لانها تنطوي على تكاليف أو صعوبات فحسب ، أمر لا يحتاج الخطأ فيه الى أية ايضاحات . ذلك ان الصعوبات او التكاليف واردة في كل مهمة كبرت أو صغرت . والمهم هو ان لا تكون التكلفة اكثر من قيمة الهدف المنوي تحقيقه . وفيما يخص بموضوعنا ، لا يختلف اثنان على ان هدف ازاله الكيان السياسي لاسرائيل لا يتقدم عليه أي اعتبار وتهون من أجله كل التكاليف بشرية كانت أم ماليه . وليس في مثل هذا القول أية عاطفية ـ كما كان يبدو لاول وهلة . ذلك ان أية حسابات علمية للارباح والخسائر في عملية اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية على أرض فلسطين لا بد وان ترجح ـ بالقطع ـ كفة الارباح .

ولعل اضعف الذرائع قاطبة هي تلك القائلة بأن من يعود من اليهود العرب سيكونون من الجواسيس و / أو طوابير خامسة . وبدون

مناقشة للبعد الفاشي ـ الشوفيني الذي قد يتضمنه مثل هذا القول، نقول : ربما يكون ذلك الافتراض صحيحا جزئيا . أي ربما يكون البعض اما عائدا في مهمة تجسسية أو جاهزا اكثر من غيره ليكون طـــابورا خامسا . ولكن الجواب على هذه « المعضلة » بسيط اذ انه لا يسحق اكثر من سؤال نسأله : ألم تثبت أجهزة الاستخبارات والمباحث الداخلية العربية جدارتها اكثر من اية أجهزة في هذا الوطن ؟ وعليه فان مثـل ذلك التخوف المضخم يتقلص ـ عند التفحص والتدقيق ـ الى حجمه الحقيقي فيغدو مجرد مسألة فنية (٢١) .

د ـ حيثيات الخطة ومعالم تنفيذها :

لا بد ، في البداية ، من استعراض العوامل التي طالما ساعدت على ازدياد هجرة اليهود الى فلسطين المحتلة قبل وبعد العام ١٩٤٨ ، والعوامل التي طالما ساعدت على اضعاف تلك الهجرة وتحويلها أحيانا الى هجرة معاكسة من اسرائيل الى الخارج ، وتوظيف نتائج هـــذا الاستعراض التحليلي لرسم الخطة العربية لواجبة .

أما العوامل المساعدة على هجرة اليهود الى فلسطين واضعاف الهجرة المعاكسة منها فتتلخص فيما يلي :

أولا ـ اللاسامية التاريخية (ما قبل العام ١٩٣٩) وبخاصه في دول اوروبا واستثمار الحركة الصهيونية لها (٢٢) .

ثانيا ـ ظروف مقدمات الحرب العالمية الثانية ونهايتها (الاستفاده من يهود المعسكرات فـــي أوروبا الغربيـــة ، ومن يهود اوروبا الشرقية) (٢٣) .

ثالثا ـ ظروف تقسيم فلسطين في العام ١٩٤٧ ، والحرب العربية الاسرائيلية الاولى في العام ١٩٤٨ وما رافقها من عواطف وردود فعل قومية متسرعه معاديه لليهود (سياسيا واقتصاديا) فـــي البـــلاد العربية (٢٤) .

رابعا ـ الانتعاش الاقتصادي في اسرائيل في الاعوام (١٩٥٥ ـ ١٩٥٧) في اعقاب تبلور اثر التعويضـــات الالمانية (الرسميـــة والشخصية) بدءا من العـام ١٩٥٣ . كذلك الانتعاش الاقتصادي في الفترة (١٩٦١ ـ ١٩٦٤) (٢٥) .

خامسا ـ النصر العسكري الاسرائيلي المـذهل في العام ١٩٦٧ وما خلقه من مشاعر قوية وتضامن ونقة في وسط يهود العالم (٢٦) . تماما مثلما كانت الصهيونية قد استخدمت ، في الماضي ، ولا تزال تستخدم ، تكتيك « التهويل بالخطر الخارجي » لاخفاء (٢٧) التناقضات والوجه البشع لاسرائيل ولشحن يهـود العالم بالتعاطف مـع اسرائيل والتحرك باتجاه انقاذها .

سادسا ـ التحرك السياسي والاعـــلامي الصهيوني المكثف ، وبخاصة منذ العام ١٩٦٧ ، ضد الاتحاد السوفياتي لاحراجه والضغط عليه لتشجيع هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل . وقد سرّع انحياز الاتحاد السوفياتي للعرب سياسيا وعسكريا منذ العام ١٩٦٧ في حدوث الطلاق السوفياتي ـ الاسرائيلي ، وأطلاق يد الحركة الصهيونية فـي معاداة الاتحاد السوفياتي الذي كان لتلك الحركة معه ـ علاوة على العداء النابع من كونها حركة استعمارية ـ ثارات قديمة (٢٨) . وهذه الاخيرة ناجمة عن الموقف الصلب الذي وقفته روسيا منذ الثورة البلشفية ، اذ لم تسمح السلطات السوفياتية الا بهجرة (١٥٠٨٠٠) يهـودي في الفترة (١٩١٩ ـ ١٩٢٣) ، وما يعـــادلهم في السنوات (١٩٢٤ ـ ١٩٣١) ، وبهجرة عشرة اشخاص فقط في الاربعينات والخمسينات ، وبهجرة خمسة اشخاص مسنين طوال الفترة ما بين ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ ونهاية العام ١٩٥١ ، في حين تم تسمح بهجرة أحد فيما بين ١٩٥٢ ومنتصف ١٩٥٣ ، وهجرة ١٢٥ شخصا فقط طوال الفتـــرة ما بين (تموز ١٩٥٣ ـ وايلول ١٩٥٥) ، وهجرة ١٠١٢٠ في العـــام ١٩٥٨ ، وهجرة مئتي يهودي في العام ١٩٦٣ (٢٩) . هذا وتسعـــى اسرائيل الى تهجير يهود الاتحاد السوفياتي اليها لكونهم لا يعيـــون اسرائيل ماليا ، ولا يشكـــلون قوة سياسية ضاغطـــة على القيادة السوفياتية (كما هو الحال في الولايات المتحدة وغيرها) ، ولكونهم « كوادر علميه » تستفيد منها اسرائيل ، علاوة على الرغبة فـــي استخدامهم لتعديل التوازن البشري الطائفي في اسرائيـــل وذلك برجيحهم لكفة الاشكنازيم (٣٠) .

سابعا ـ الايديولوجيات والمواقف السوفيتية العربية ، الرسمية وغير الرسمية ، طوال سنوات عديدة من جهة ، وتقصير الاعلام العربي التقدمي الجديد ازاء اليهود والشرقيين منهم على نحو خاص ، من جهة ثانية . ولعل هذا هو السبب الاهم في ابقاء « حركة الفهـــود السود » ، مثلا ، غير مستعدة « للمشاركة في الكفاح العربي ضـد الصهيونيه » وكونهم غير مهتمين « سوى في الحصول على قطعة من الجبنة الصهيونية في اسرائيل » (٣١) . كما ان ذلك كله ، اضافه الى غياب برنامج ايجابي عربي لاعادة توطين اليهود العرب الاسرائيليين في الوطن العربي ، لعب دورا بارزا في « اغلاق » عقل اليهـــودي العربي في اسرائيل ازاء احتمالات عودته الى موطنه الاصلي ، وبالتالي بقائه في الدولة الصهيونية طالما انه غير قادر لاسباب ثقافية ونفسيه ومالية على الهجرة الى الدول الغربية (٣٢) .

اما العوامل التي اضعفت الهجرة الى اسرائيل او ساعـدت على الهجرة المعاكسة منها فنلخص في التالية :

أولا ـ المقاومه الرسمية والشعبيه العربية المتمثله في المقاطعة الاقتصادية والرفض السياسي وبالذات القتال العسكري وبخاصة منذ ظهور حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة بدءا من العام ١٩٦٥ وما اعقب ذلك من معارك كان ابرزها ما وقع في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ .

ثانيا ـ نضوب ما عرف باسم « مناطق الضيق » (اوروبـــا الشرقية ، العالم العربي) نتيجة هجرة غالبية يهود هذه المنـــاطق الى اسرائيل في أعقاب قيام الدولة الصهيونية (٣٣) .

ثالثا ـ اغراءات ما عرف باسم « مناطق الرخاء » (اميركـــا الشمالية والجنوبية ، اوروبا الغربيـــة ، اوستراليا ، افريقيـــا الجنوبية) لليهود للبقـــاء فيها أو الهجرة اليهـــا مـن اسرائيل وغيرها (٣٤) .

رابعا ـ الازمات الاقتصادية في اسرائيل ، وبخاصة في العامين (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ، وكذلك في العامين (١٩٦٥ ـ ١٩٦٧) . وقد انخفض مستوى الهجرة في هاتين الفترين بشكل ملحوظ وازدادت فيها الهجرة المعاكسة من اسرائيل (٣٥) .

خامسا ـ عدم صهيونية العديد من اليهود وتفضيلهم لمستقبلهم الذاتي . ومن الادلة البارزة على ذلك ، أنه عندما استقلت الجزائر لم يهاجر الى اسرائيل الا ٧ ٪ من مجموع ١١٠ آلاف من اليهـــود الجزائريين . وقد فضل الباقون السفر الى فرنسا والاقامة فيها (٣٦) .

سادسا ـ القيود السوفياتية على هجرة اليهود الى اسرائيل (٣٧) . ولهذا العامل أهمية بالغة ، خاصة اذا تذكرنا ان عدد اليهود فـــي الاتحاد السوفياتي يكاد يعادل عدد يهود اسرائيل (٣٨) . وفي هـذا المجال ، لا تلجأ الدولة السوفياتية الى الاجراءات السلبية بمنـــع اليهود من المغادرة فحسب ، بل انها بالتمييز (المقصود وغير المقصود) لصالح سكانها من اليهود تجعلهم غير راغبين في مغادرة الاتحـــاد السوفياتي على الرغم من الضغوط الصهيونية والاسرائيلية الهائلة عليهم. والدليل على حسن المعاملة هذه (بل ربما التفضيل) ان يهود الاتحاد السوفياتي الذين لا يشكلون الا ١٫٥ ٪ من مجموع السكان يشكلون ١٤٫٧ ٪ من الاطباء ، ١٤ ٪ من الكتاب ، و ١٠٫٤ ٪ من المحامين، و ٣٢ ٪ من الملحنين والمؤلفين ، و ١٣ ٪ من الفنانين فـــي الدولـــة السوفياتية (٣٩) .

سابعا ـ المشاكل غير الاقتصادية داخل اسرائيل . وتلخص هذه في مشاكل الاستيعاب والتكيف وما يرافقها من احساس شديد بالغربة والعزلة ، والروتين الحكومي المعقد والمهل ، والامتيازات التي تقدم للمهاجرين الجدد والتي خلقت ردود فعل عدائية في وسط المهاجرين القدامى الذين أصبحوا يجاهرون بعدائهم لكل مهجر جديد بحيث يسرّعون في مغادرته البلاد ان حضر ، أو « اقناعه » بالاحجام عن الحضور ان كان يفكر في ذلك (٤٠) . واخيرا ، وليس آخرا ، متمكنه التمييز العنصري الحاد داخل المجتمع الاسرائيلي وتحول الاغلبية اليهودية الى مواطنين من الدرجة الثانية وما نتج عن ذلك من ثورات وحركات رفض وتمرد (٤١) .

ثامنا ـ مواقف بعض الدول العربية ازاء هجرة مواطنيها من اليهود الى اسرائيل وتشجيعهم ، نفسيا وماديا ، على البقاء في البلدان العربية المعنية . ولعل الامثلة البارزة في هذا المجال :موقف لبنان منذ العام ١٩٤٨ وكل من المغرب وتونس منذ العام ١٩٥٨ (٤٢) .

اذن ، وبعد أن استعرضنا العوامل التي تساعد على هجرة اليهود الى اسرائيل ، ودرسنا العوامل التي تقلل من الهجرة اليها أو التي تزيد الهجرة منها ، ما هي معالم الخطة العربية التي تزيد من عوامل « تحدي الهجرة » الذي يواجه اسرائيل ، وتساعد ، في الوقت ذاته، على تفسيخ المجتمع الصهيوني فيها ، وتعزز ، بالتالي ، حركة الثورة الفلسطينية والعربية ازاء العدو الصهيوني ؟

أولا ـ نشر وترسيخ الفكر التقدمي المضاد للفكر الفاشي والشوفيني الذي لا يميز ضد اليهود فحسب ، بل وضد الاقليات الاخرى بشكل عام .

ثانيا ـ تأكيد الدول العربية رسميا ، وعلى أعلى المستويات وبأكثف زخم ممكن ، الموقف المبدئي التاريخي للأمة التربيه المسامح مع الاقليات بشكل عام ، ومع الطائفة اليهودية بشكل خاص ، وارفاق ذلك بخطوات عملية جذرية تعزز اوضاع ما تبقى من اليهود في البلدان العربية . ولعل في موقف الثورة الفلسطينية من يهود لبنان اثناء الحرب الاهلية اللبنانية خير مرشد في هذا المجال ، ناهيك عن الموقف العراقي ، في دستور العام ١٩٢٥ ، والذي كان ساوى بين المواطنين العراقيين يهودا وغير يهود ، في الحقوق والواجبات ، وذلك قبل ان تلغي حكومة نوري السعيد ذلك النص عمليا في الاجراءات التعسفيه التي أقدمت عليها في العام ١٩٥٠ (٤٣) .

ثالثا ـ تبني الدول العربية رسميا ، وعلى أعلى المستويات وبأكبر كثافة من الجدية ، قرارا يسمح بعودة اليهود العرب الى الدول العربية ، كمواطنين اصيلين ، لا رعايا ، مع تمكينهم ـ ماديا ـ من اعادة بناء مستقبلهم في وطنهم الجديد ـ القديم وذلك بشد ازرهم عن طريق جهود « الوكالة العربية » التي تنشأ لهذه الاغراض (٤٤) .

رابعا ـ تمتين صلات الدول العربية بالاتحاد السوفياتي وتشجيعه ، بمختلف الوسائل ، على مقاومة الضغوط الصهيونية والغربية الموجهة اليه لفتح أبواب الهجرة على مصراعيها أمام اليهود السوفيات ، والسعي لدى الدولة السوفياتية من أجل اعادة اغلاق الباب نهائيا في وجه التأثيرات الصهيونية على المواطنين السوفيات ، وقبول اعادة اليهود السوفيات الذين اكتشفوا جوهر اسرائيل البشع فغادروها فعلا أو هم في طريقهم الى مغادرتها .

وبعد ، ان الدعوة الى عودة اليهود العرب من اسرائيل الى البقاع الاصلية التي سبق لهم وعاشوا فيها على امتداد رقعة الوطن العربي ، هي الوجه الآخر للدعوة الهادفة الى تنفيذ الهدف الاستراتيجي للثورة الفلسطينية والخاص باقامة الدولة العلمانية الديمقراطية في فلسطين. بل ان هذه الدعوة تشكل ركنا أساسيا من اركان الهدف الاستراتيجي للأمة العربية الساعي الى اقامة الدولة العربية العلمانية الديمقراطية التي لا غنى عنها كبوتقة لصهر انسان الارض العربية في امة واحدة متلاحمة تقطع الطريق على كل محاولات الاستعمار القديمة ـ الجديدة التي طالما سعت الى تقطيع أوصال الامة العربية بسيف « التمايز الديني » حينا ، وبسيف « التمايز العرقي » حينا آخر . ولعل الانتصار الابرز ـ ان كان ثمة انتصارات أخرى ـ في تجربة « المسلخ اللبناني » الاخيرة هو انتصار صيغة « دولة كل الطوائف » على صيغه « دولة لكل طائفة » . هذا من جهة ، ومن جهة ثانيه ، لا تشكل الخطة الخاصة باعاده اليهود العرب الى مواطنهم الاصلية ، على عظمها وأهميتها ، الا تحديا فرعيا أمام الامة العربيه . أما التحدي الرئيسي فهو في انه لن يكون للخطة المبينة أعلاه اية قيمة ما لم يقتنع يهود اسرائيل والعالم بأن اسرائيل وجدت لتزول . وهم لن يقتنعوا طالما ان نار الجبهات العربية ، باستثناء الجبهة الفلسطينيه ، غير مشتعلة . كما لن يكون للخطة ذاتها أية قيمه ان لم تواكبها خطه اقتصادية وسياسية واجتماعية شامله لتعزيز مواطنية العرب المقيمين (يهودا وغير يهود) وتمهيد الطريق ليس أمام عودة العرب (اليهود فحسب) ، بل وافناع العرب (من غير اليهود) بالبقاء في وطنهم أولا ، وتمهيد الطريق امام عودة العرب المهاجرين (من غير اليهود) الى بلادهم ثانيا . وهنا بالذات يكمن التحدي الحقيقي الذي يواجه أمتنا العربية .

أسعد عبد الرحمن
جامعة الكويت

الحواشي

١ ـ انظر صحيفة « القبس » الكويتية في ٢٢ ـ ٢ ـ ١٩٧٦ ، ص ١ و ١٦ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٦ .

٣ ـ كما جاء في مقالة اللواء كمال عبد الحميد « لا .. لهذه الاسباب » ، « القبس » في ١ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

٤ ـ انظر دراسة أبو مازن ، عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ـ فتح « الصهيونية .. بداية ونهاية » (مكتب التعبئة والتنظيم في حركة فتح ١ ـ ١ ـ ١٩٧٦) .

٥ ـ من نوع الندوة الخاصه التي عقدها أبو مازن ، احد قياديي فتح ، مع عدد من الشخصيات الاعلامية الفلسطينية والعربيه ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية في الكويت في شهر شباط (فبراير) ١٩٧٦ . وكذلك الندوة العامة التي عقدت بدعوة من الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ فرع الكويت بتاريخ ١٦ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ والتي اشترك فيها كل من : اندكتور هاني فارس والدكتور اسعد عبد الرحمن (مؤيدان لفكرة عودة اليهود العرب) والدكتور ابراهيم مكي واللواء كمال عبد الحميد (معارضان) ، وقد أدار الندوة وساهم فيها الاستاذ خالد الحسن أحد قادة فتح . انظر تفاصيل الندوة في « القبس » بتاريخ ١٧ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

٦ ـ فقد شكلت لجنة متابعة في الكويت ، مثلا .

٧ ـ أنظر صحيفة « القبس » بدءا من ٢١ ـ ٢ ـ ١٩٧٦ وحتى ٢٠ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ على سبيل المثال .

٨ ـ ومن الامثلة على هذه الاراء ، انظر مقالات مؤيدي الفكرة :
أ ـ توفيق ابو بكر « نعم لهذه الاسباب » ، «القبس» في ٢٨ و ٢٩ ـ ٢ ـ ١٩٧٦ .
ب ـ د. أسعد عبد الرحمن ، « التحدي الفرعي والتحدي الرئيسي » ، المصدر السابق ، في ٣ و ٤ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .
ج ـ حسين خليل ، « نعم .. لاسباب قومية وانسانية » المصدر السابق ، في ٩ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .
د ـ حسين أبو النمل ، « العودة .. والتصعيد العسكري » ،

المصدر السابق ، في ١٢ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

اما المقالات المعارضة فهي :

أ ـ اللواء كمال عبد الحميد ، « لا .. لهذه الاسباب » ، « القبس » في ١ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

ب ـ فتحي الحديدي ، « لا لعودة الجواسيس » ، المصدر السابق ، في ٢ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

ج ـ د. ابراهيم مكي ، « لا نضيفوا الى أخطائنا خطأ جديدا » ، المصدر السابق ، في ٦ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

د ـ د. حسين مؤنس ، « اذا عادوا .. سيشربون النفط حتى آخر قطرة » ، المصدر السابق ، في ٧ ـ ٣ ـ ١٩٧٦

اما مقالة د. عزيز شكري فكانت مقارنة بين بينية يصعب تصنيفها. انظر : « ثقافيا : نعم ، واقعيا : المسألة غير مطروحة » ، المصدر السابق ، في ٨ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

٩ ـ انظر عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل : مشاكلها وكيفية التصدي لها » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ١٠ ، ١٩٧٢) ، ص ٥٣ . كذلك : مصطفى عبد العزيز ، « اسرائيل ويهود العالم : دراسة سياسية وقانونية » (بيروت ـ مركز الابحاث ، ١٩٦٠) ، ص ١١٧ ـ ١١٨ .

١٠ ـ عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

١١ ـ عبد الحفيظ محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٤ .

١٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٣ . كذلك : عبد الحفيظ محارب « اليسار الاسرائيلي الجديد (سيح) » ، « شؤون فلسطينية » ، (العدد ١٩ ، ١٩٧٣) ص ٦٤ .

١٣ ـ كما ورد في : عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٥٥ ـ ٥٦ . كذلك : أحمد حجاج ، « سكان اسرائيل : تحليل وتنبؤات » (بيروت ـ مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ، ص ٨٥ .

١٤ ـ كما جاء في المصادر التالية : محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ـ ٦٦ . كذلك : عودة أبو ردينة « اليهود الشرقيون في اسرائيل » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ٤ ، ١٩٧١ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٥ . أيضا : عبد الحفيظ محارب ، « الهوة الاجتماعية في اسرائيل » « شؤون فلسطينية » (العدد ١٥ ، ١٩٧٢) ص ٣٧ ـ ٤٣ .

١٥ ـ التعبير مستعار من دراسة عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ١١٨ .

١٦ ـ انظر : ابو مازن ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

١٧ ـ المقصود الهجرة المعاكسة من اسرائيل ورجحان كفتها على الهجرة الى الدولة الصهيونية في العام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ . انظر : حجاج ، المصدر السابق ، ص ٢٩ و ٧٠ ـ ٧١ .

١٨ جميع الذرائع المضمنة في هذا القسم مستقاة من المقالات التي كتبت ضد عودة اليهود العرب علاوة على مقالة د. عزيز شكري الآنفة الذكر . انظر حاشية رقم ٨ .

١٩ ـ انظر : ابو مازن ، المصدر ذاته .

٢٠ ـ المصدر السابق ، ص ٤٤ .

٢١ ـ من أجل تفاصيل اكثر عن مضمون القبول والرفض حول مسألة عودة العرب اليهود ، انظر وقائع الندوة الخاصة بذلك والتي نشرت في « القبس » بتاريخ ١٧ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ ، ص ١١ .

٢٢ ـ انظر : محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .

٢٣ ـ المصدر السابق ، ص ٥٥ ـ ٥٧ . كذلك : عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

٢٤ ـ محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٦ . كذلك : عبد القادر ياسين ، « عصبة مكافحة الصهيونية في العراق » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ١٥ ، ١٩٧٢) ص ١٥٩ .

٢٥ ـ راجع : محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٧ ـ ٥٨ . كذلك : حجاج ، المصدر السابق ، ص ٧٠ ـ ٧١ .

٢٦ ـ محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

٢٧ ـ محارب ، « الهوة الاجتماعية في اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .

٢٨ ـ انظر : داوود تلحمي ، « بلجيكا : مؤتمر بروكسيل ويهود الاتحاد السوفياتي » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ٢ ، ١٩٧١) ، ص ١٢٤ . كذلك : الدراسة التي أعدها د. صلاح دباغ بعنوان « الاتحاد السوفياتي وقضية فلسطين » (بيروت ـ مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ، ص ٦٢ ـ ٦٥ .

٢٩ ـ المصدر السابق ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

٣٠ ـ تلحمي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ . كذلك : محارب ، « اليسار الاسرائيلي الجديد » ، المصدر السابق ، ص ٦٤ .

٣١ ـ ابو ردينة ، المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

٣٢ ـ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .

٣٣ ـ المصدر السابق ، ص ٥٨ ـ ٦٢ .

٣٤ ـ انظر المراجع التالية : المصدر السابق ، ص ٥٨ ـ ٥٩ . كذلك : مصطفى عبد العزيز ، « الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية » (بيروت ـ مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ص ١٦٤ .

٣٥ ـ حول الازمة الاقتصادية في ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤ انظر : حجاج ، المصدر السابق ، ص ٢٩ . وحول الازمة الثانية في ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧ راجع : محارب ، «الهجرة الى اسرائيل» ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

٣٦ ـ المصدر ذاته .

٣٧ ـ المصدر السابق ، ص ٦٢ ـ ٦٧ .

٣٨ ـ دباغ ، المصدر السابق ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

٣٩ ـ عبد العزيز ، « اسرائيل ويهود العالم » ، ص ١٣ و ١٧٣ .

٤٠ ـ محارب ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ـ ٦٥ .

٤١ ـ ابو ردينة ، المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

٤٢ ـ انظر : محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٧ و ٦٦ و ٦٥ . كذلك : عبد الحفيظ محارب « ظاهرة الفهود السود في اسرائيل : اسبابها واصولها » ، شؤون فلسطينية » (العدد ٤ ، ١٩٧١) ، ص ١٥١ .

٤٣ ـ ياسين ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

٤٤ ـ تقتضي الاشارة الى ان اول من كتب حول هذا ، بحدود علم المؤلف ، هو عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .